

هيئة كتابة التأريخ
اعلام الفكر العربي
ابن جني
عالم العربية
الدكتور
حسام سعيد النعيمي

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الطبعة الاولى ١٩٩٠ ـ بغداد



طباعة ونشر

دار الشؤون الثقافية العامة « آفاق عربية »

رئيس مجلس الادارة :

الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات

بأسم السيد رئيس مجلس الادارة

العنوان :

العراق - بغداد/اعظمية ص-ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣

هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

هيئة كتابة التاريخ
اعــلام الفكــر العــربي

ابن جني

عالـــم العربيـــة

الدكتـور
حسام سعيد النعيمي
استاذ الدراسات اللغوية بكلية الآداب ـ جامعة بغداد

الطبعة الاولى ١٩٩٠ ـ بغـداد

« ان اكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى اليها ، فانما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأحنائها .. »

ابن جني

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسـول الله وآلـه واصحابه أجمعين .

وبعـد ..

فان ابن جني علم من اعلام هذه اللغة الكريمة ، رأى فيها ما ملك عليه حسه ، فوقف نفسه على خدمتهـا ، واسـتكناه اسرارها وبيان عجيب ما وفقت له .

وقد رأينا من الوفاء لهذا العالم الجليل القدر ، أن نقدمه لقراء العربية اليوم فى دراسة موجزة تحاول ان تعرف به ، وأن تضعه في المكان الذي يستحقه بين محبي اللغة العربية والغيورين عليها ، وكذلك بين منظري الدراسات اللسانية الحديثة .

فاقتضت طبيعة البحث ان نجعله ثلاثة فصول :

الفصل الاول : ابن جني ، حياته وثقافته : تكلمنا فيـه بايجاز على موطنه ـ الموصل ـ والحالة العلمية فيه وفي بغداد حيث استقر للتدريس ، والحالة العلمية في زمانه ، وذكـرنا

أشهر معاصريه وشيوخه وتلامذته ، وصحبته للمتنبي ، وعلاقته بالشريف الرضي ·

ثم انتقلنا للكلام على ثقافته ، وبيان اهم السمات في كتاباته ، ومذهبه النحوي ، ومصادر دراسته من المشافهة والأخذ من الشيوخ ، والاخذ من الكتب ، ومشافهة الاعراب في زمانه ، وافادته من شواهد العربية المختلفة ومنها القرآن وقراءاته ، والحديث النبوي ، وكلام العرب وأمثالهم واشعارهم، والقياس ·

وختمنا الفصل الاول بذكر أشهر آثاره المطبوعة ، ليفيد منها من يرغب في زيادة الاطلاع على ما كتبه عالم العربية هذا ·

اما الفصل الثاني فكان : ابن جني والعربية :

تحدثنا فيه عن منزلة العربية في نفسه ، وغيرته عليها ، ثم ذكرنا شيئا من اسرار العربية التي تحدث عنها ابن جني ومن ذلك نظريته في الاشتقاق الاكبر ، والصوت والمعنى ، ومعاني الصيغ والتضعيف ، وترتيب الحروف بما يضاهي الاحداث ، وحكاية الاصوات ، وحركة الحرف في البنية ، والمضارعة في الاصول ·

ثم انتقلنا للكلام على لهجات العربية المختلفة وموقفه من الاحتجاج بها ، وشذوذ اللهجات ، ومعنى الشذوذ عنده ، ومخالفة لغة جمهور العرب ، وتداخل اللهجات والمقايسة بينها ، والقياس على لغة العرب ·

واما الفصل الثالث فكان : ابن جني والدرس اللغوي الحديث . أوردنا فيه عدداً من الافكار والمفاهيم التي عرضها العاملون في حقل الدرس اللساني في الغرب مما يمكن ان نجده يلتقي مع ما كان ابن جني قد سبق اليه وهو عند اولئك مما ابدعته قرائحهم ، وجاءت به نظرياتهم ، من ذلك مثلا : النظرية الصوتية في نشأة اللغة ، واللغة بين دي سوسور وابن جني ، والصورة الصوتية ، ومصطلحات سوسور الثلاثة في علم اللغة ، والكتابة الصوتية ، واعتباطية الاشارة اللغوية ، والثبوت والتغيير في الاشارة اللغوية ، والقدرة اللغوية بين ابن جني ومفهوم النحو التوليدي ، والكفاية اللغوية ، والجملة النواة ، والبنية والمعنى ، والسمات المعجمية ، والبنية السطحية والعميقة .

وفي اثناء كتابة هذه الفصول وجدت شيئا من مادتها يتداخل في بعض الأحيان مع ما كنت كتبته في « الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني » ، فاجتهدت في الافادة منه في تلك المواضع نصا او تلخيصا .

كذلك أفدت من كتب ابن جني ، وهو امر طبيعي ما دام البحث قائما عن ابن جني عالم العربية ، وقد كان الخصائص ، وسر الصناعة ، أكثر كتبه التي أفدت منها ، بل ان الفصل الثالث يكاد البحث فيه يقتصر على كتاب الخصائص وذلك لطبيعة الكتاب المنسجمة مع مادة الفصل . اما كتبه الاخرى فقد أفدت منها في الفصل الاول والثاني . هذا فضلا عن عدد من المصادر القديمة والحديثة مما أشرت اليه في موضعه .

وانا لنرجو ان يجد القارىء في هذه الفصول ما يقدم له صورة ميسرة لهذا العالم ، وحبّه للغـــة القرآن ، ولعقليتـه اللغوية النيرة التي وافقتها في جوانب منها الدراسات اللسانية الحديثة ·

والله من وراء القصد ·

د · حسام النعيمي

الفصل الاول

ابــن جنــي

حياتــه وثقافتــه



المكان والزمان :

ولد ابو الفتح عثمان بن جني في حدود سنة عشرين وثلاثمائة للهجرة(١) ، في الموصل . وفي هذا البلد العريق نشأ صاحبنا ، وترعرع ، وأخذ العلم عن مشايخه ، فقد كانت الموصل في زمانه حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، التي يشار إليها في العلم ، وكثرة المشايخ ، يقول المقدسي وهو يتحدث عن الموصل : (بلد جليل ، حسن البناء ، طيب الهواء ، صحيح الماء ، كثير الملوك والمشايخ ، لا يخلو من اسناد عال ، وفقيه مذكور) (٢) .

هذا البلد كان يضم الكثير من دور العلم والمكتبات في المساجد وخارجها (نريد بدور العلم المكتبات العامة التي أنشئت خارج المدارس والجامعات لتسهيل المطالعة والانتساخ وتيسيرهما للراغبين في العلم ، وخاصة لغير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها في تلك العصور ، ولذلك سارع الاغنياء والعلماء والأمراء والوزراء الى تأسيس دور عامة للكتب ، أطلق عليها : « دور العلم » فكانت معاهد عامة للدرس والانتساخ والترجمة والتأليف ، تختلف عن الخزائن الخاصة . وسنذكر على سبيل المثال نماذج من هذه

الدور التي انشئت في العراق ، والكتب التي وقفت عليها ، وشيئا مما قدمته للثقافة مع الاشارة الى الاوقاف المادية التي وقفت عليها لادامتها وتنميتها ، والانفاق على اربابها ٠ من ذلك :ـ

٣ ـ دار علم الموصل :

لقد أنشأ هذه الدار ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشافعي المتوفى سنة ٣٢٣هـ وكان من اهل الرئاسات بالموصل ٠ وقد جعل في هذه الدار خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم من العلوم ، لا يمنع احد من دخولها ٠ وكان يعطي الغرباء من طلاب الادب الوَرَقَ والورِق ، وكانت هذه الدار تفتح كل يوم) (٣)٠

هذا كان شان البلد الذي ولد فيه ابن جني اما البلد الذي توفي فيه فهو بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية وموئل العلماء والفقهاء والشعراء ، لقد كان (العراق في العصر العباسي أهم مكان للحركة العلمية فى الدنيا لاسيما بغداد التي حصلت على شهرة علمية واسعة لا تدانيها في ذلك شهرة مدينة من مدن الانبراطورية العباسية ، ان فى العلوم الاسلامية والعربية ، او في نقل العلوم الاجنبية ٠٠ ان العراق في العصر العباسي كان يموج بالاطباء والفلاسفة والمنجمين من الشعوب المختلفة ، حتى ليزيد عدد المترجمين على المئة) (٤) ٠

وفي بغداد كما في الموصل كانت هناك « دور علم » منها دار العلم بالكرخ التي أنشئت سنة احدى وثمانين

وثلاثمائة للهجرة (ولم يكن في الدنيا أحسن كتبا منها ، وكانت كلها بخطوط الائمة المعتبرة وأصولهم المحررة ، وقد وقف عليها أبو نصر الوقوف ، ونقل اليها كتبا كثيرة مما ابتاعه وجمعه .
وعمل لها فهرستا ، ويذكر ابن الجوزي ، وابن الاثير ، ان عدد كتبها بلغ أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وترد في رواية اخرى عشرة آلاف مجلد ، وترد في رواية اخرى عشرة آلاف واربعمئة مجلد) (٥) .

لقد عاش عالمنا في القرن الرابع الهجري . ذلك القرن الذي شهد من العلماء والادباء ما عوضت به الامة عما اصابها فيه من اضطراب سياسي ، ويكفي لتصور ما كان عليه النشاط الثقافي في هذا العصر أن تلقي نظرة مثلا على معجم الادباء لياقوت ، فسوف تجد انه اورد ـ على ما احصيناه ـ نحوا من سبع وستين وألف ترجمة ، من ستة قرون ، كان نصيب القرن الرابع منها نحوا من احدى وعشرين ومائتي ترجمة ، اي بما يزيد على معدل القرن الواحد بما يقرب من ٢٥٪ من التراجم ، فهو اذن قرن متميز قال فيه الاستاذ ناجي معروف وهو يوازن ما كانت عليه حضارة العرب بحضارة الغرب : (واذا كانت البلاد العربية في القرن الرابع الهجري أي القرن العاشر الميلادي مليئة بامثال ابن الهيثم البصري واضع علم البصريات ، والرئيس ابي علي بن سينا الطبيب العالم الفلكي ، وعلي بن العباس واضع اول موسوعة طبية ، واذا كان علي بن عيسى أصبح اكبر طبيب للعيون ، وابو القاسم اعظم جراح ، فان قسطنطين

الاغريقي بدأ بنقل الكتب الطبية العربية الى اللاتينيــة فــي القرن الحادي عشر الميلادي) (٦) ٠

وفي الموصل حيث كان مولد عالمنـا ، نـراه يتصـدر للتدريس وهو فتى يافع ، وتشاء الاقدار ان يـزور ابو علي النحوي الموصل ويرى هـذا الشـاب في المسجد الجامع وهو يقرىء الناس علوم العربية ، فيسعى الى تذكيره بتعجله فـي التصدر للتدريس ، واذا كان الفتى يرى نفسه متضلعا مـن النحو ، يدرسه بقدرة ومكنة ، فليسأله فى قضية في التصريف، ويضطرب الشاب ، ويجتهد في الجواب ، ولكنه يعلم انه قد قصر في الاجابة ، ويقول له ابو علي : مازلت حصرما وتريد ان تجعل من نفسك زبيبا (زببت وأنت حصرم) يشير بذلك الى تعجله في التدريس ، ويسأل ابن جني عن الرجل ، ويعلم انه أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار ، من كبـار شـيوخ العربية في زمانه ، فيدع صاحبنا التدريس ويلـزم أبـا علي تلميذا دارسا سنوات عدة (٧) ٠ وكان اذا فرقـت بينهمـا الاسـفار يكتب اليه يسأله عما يبدو له من امـور العربيـة أو عما يريد أن يعرف رأيه فيه من مشكلات اللغـة والنحـو والتصريف ٠

تنقل ابن جني مع شيخه او منفردا ، بين الموصـل ، وبغداد ، وواسط والشام ، وفي حلب لقي المتنبي ، وانعقدت بينهما عرى صداقة متينة كما سيأتي ، وعندما توفي شيخه أبو علي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ببغداد (٨) ، تصدر ابن

جني مكانه للتدريس ، الى ان توفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ودفن عند قبر شيخه أبي علي في مقبرة الشونيزي(٩) وهي المقبرة المعروفة اليوم في بغداد باسم مقبرة الشيخ جنيد (١٠) ، وكان له من الولد ثلاثة هم (علي وعال وعلاء ، وكلهم أدباء فضلاء ، قد خرجهم والدهم ، وحسن خطوطهم ، فهم معدودون في الصحيحي الضبط ، وحسن الخط) (١١) .

معاصروه :

كان القرن الرابع كما تقدم حافلا بالعلماء الذين بقيت اسماؤهم خالدة بما خلفوه لنا من آثار ، ومن اشهر هؤلاء ممن عاصر ابن جني غير من سيرد ذكره في شيوخه :

احمد بن فارس :

اللغوي صاحب التصانيف الكثيرة الجليلة ، ومن أشهرها معجماه المجمل والمقاييس ، وكتابه : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (١٢) .

اسماعيل بن حماد الجوهري :

لغوي ، من أئمة العربية ، اشهر تصانيفه معجم الصحاح توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة (١٣) .

اسماعيل بن عباد :

المعروف بالصاحب ، وزير غلب عليه الادب . له

تصانيف جليلة منها معجمه المحيط ، توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة (١٤) .

الحسن بن بشر الآمدي :

عالم بالأدب ، راوية ، من الكتاب ، من اشهر تصانيفه : الموازنة بين البحتري وابي تمام ، والمؤتلف والمختلف ، توفي سنة سبعين وثلاثمائة (١٥) .

الحسن بن عبدالله السيرافي :

أبو سعيد السيرافي ، نحوي ، عالم بالادب ، من اشهر كتبه : شرح كتاب سيبويه ، واخبار النحـويين البصريين . توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة(١٦) .

الحسن بن عبدالله العسكري :

أبو أحمد العسكري ، فقيه ، أديب ، علت شهرته ورحل اليه الاجلاء للاخذ عنه ، من اشهر كتبه : شرح ما يقـع فيـه التصحيف والتحريف ، والمصون في الادب ، توفي سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة (١٧) .

أبو هلال العسكري :

الحسن بن عبدالله بن سهل من علماء الأدب واللغة ، له جملة صالحة من الكتب من أشهرها : الفروق في اللغة ، وجمهرة الامثال ، وكتاب الصناعتين النظم والنثر . توفي بعد سـنة خمس وتسعين وثلاثمائة (١٨) .

علي بن عيسى الرماني :

ابو الحسن ، باحث مفسر ، من كبار النحاة في زمانه ، له نحو مئة مصنف من أشهرها : شرح كتاب سيبويه ، ومنازل الحروف ، والنكت في اعجاز القرآن ، توفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (١٩) .

علي بن محمد التوحيدي :

أبو حيان ، نعته ياقوت بشيخ الصوفية وفيلسوف الادباء ، من كتبه : المقابسات ، والبصائر والذخائر ، والامتاع والمؤانسة ، توفي نحو سنة أربعمائة (٢٠) .

محمد بن أحمد الازهري :

أبو منصور ، أحد الائمة في اللغة والادب ، من أهم كتبه معجمه : تهذيب اللغة ، توفي سنة سبعين وثلاثمائة (٢١) .

محمد بن الحسن الحاتمي :

أبو علي ، أديب نقاد ، من أهم كتبه : الرسالة الحاتمية ، واسمها (الموضحة) وهي في نقد شعر المتنبي . توفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (٢٢) .

محمد بن عمران المرزباني :

أبو عبيدالله ، أخباري مؤرخ أديب ، له كتب كثيرة ، من أهمها : معجم الشعراء ، والموشح ، توفي سنة اربع وثمانين وثلاثمائة (٢٣) .

ولو ذهبنا نتقصى اسماء العلماء من معاصريه ، لاعيانا ذلك ، وفيما قدمناه غناء ٠

شـــيوخه :

حرص علماء العربية على الوصية بأخذ العلم من أفواه الرجال ، وترك الأخذ عن الصحف من غير شيخ ، فهذا أبـو حمزة الزيات يأمر ولده بالاخذ من افواه الرجال فيقول : (دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال)[٢٤] وقد (كان يقـــال : لا تأخذ القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي) [٢٥] ٠

وهكذا نجد ابن جني يصحب أكثر من شيخ يأخذ عنـه العلم ، ويذكر في احيان كثيرة سلسلة السند في رواية ما يأخذه عن شيوخه ، وكان اكثر هؤلاء الشيوخ أثرا فيه شيخه أبا علي النحوي ٠ وكان ابن جني أمينا فيما يرويه عن شيوخه ، حريصا على ذكر عباراتهم بنصها اذا امكنه ذلك ، والا أشـار الى ان هذا معنى ما قاله فلان ، انظر الى قوله : (كذا عهـد الي أبو علي رحمه الله في هذا ، وهذا لفظه لي فيه البتة)[٢٦] ٠ وقوله : (هذا محصول معنى أبي علي ، فأما نفس لفظه فلا يحضرني الآن حقيقة صورته) [٢٧] ٠ بل انه بلغ من الامانة العلمية حداً جعله يتردد في القطع بطريقة الأخذ عن شيوخه ، أو برواية مسألة ما ، فهو لا يستطيع ان يقطع مثلا أ أنشـده شيخه هذا البيت أم قرأه هو عليه ؟ ، وهذا الأمر قرأه هـو على شيخه ٠ أم كان غيره يقرأ وهو حاضر يسمع ؟ ، وهذه الرواية حدثه بها شيخه عن الأصمعي أم عن أبي زيد ؟ يقول :

(انشدني ابو علي أو قرأته عليه)(٢٨) ، ويقول : (وقرأت على ابي بكر محمد بن الحسن أو سمعته يُقرأ عليه عن تعلب) (٢٩) • ويقول عن شيخه أبي علي : (واخبرني أيضا قال : قال الأصمعي أو ابو زيد ، أشك أنا) (٣٠) فقوله : أشك أنا ، دفع لاحتمال أن يظن القارىء ان الذي شك في الرواية واستعمل (أو) هو شيخه ، فهو يرى أن اعلان اتهامه لحفظه أولى من احتمال تصور نسبة السهو الى شيخه •

وقد أخذ بسلسلة السند من شيوخه عن كبار علماء العربية الذين تقدموه ، واكثر أخذه كان من شيخه ابي علي النحوي ، ولعل مرد ذلك الى كثرة ملازمته له ، ثم عن شيخه ابن مقسم ثم عن آخرين كانوا أقل أثرا فيه من هذين • وفيما يأتي ترجمة شيخيه بايجاز وطرق شيوخه الى أئمة العربية :

الحسن بن احمد بن عبدالغفار :

أبو علي النحوي ، قال عنه ابن الجزري : (روى القراءة عرضا عن أبي بكر مجاهد ، روى القراءة عنه عرضا عبدالملك ابن بكران النهرواني ، واخذ النحو عن أبي اسحاق الزجاج ، ثم عن أبي بكر بن السري ، وأخذ عنه كتاب سيبويه ، وانتهت اليه رياسة علم النحو •• وقد أخذ عنه النحو أئمة كبار كابن جني وأبي الحسن الربعي • توفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة) (٣١) •

ويندر أن تجد كتابا لابن جني ليس فيه ذكر ابي علي وآرائه ، وهو يورد آراء شيخه ، واقواله ، ومروياته ، معزوة

اليه مباشرة الا انه في أحيان أخرى كان يذكر اسناده فيما يرويه ، وقد نظرت في اسناد ابي علي الذي يرويه ابن جني فوجدته ينتهي الى أبي زيد الانصاري من عدة طرق ، منها : أبو علي عن ابي الحسن علي بن سليمان الأخفش الصغير عن أبي العباس محمد بن يزيد المبرد عن أبي الفضل الرياشي عن أبي زيد الانصاري [٣٢] . ومنها : ابو علي عن أبي بكر ابن السراج عن أبي سعيد السكري عن أبي زيد [٣٣] ومنها ما يكون أبو زيد فيه طريقا الى الخليل : ابو علي عن أبي بكر ابن السراج عن أبي العباس عن أبي عثمان المازني عن أبي زيد عن الخليل [٣٤] .

وأخذ عن أبي عمرو بن العلا ، باسناد أبي علي : أبو علي عن أبي بكر عن أبي العباس عن أبي عثمان عن الاصمعي عن أبي عمرو [٣٥] ، وباسناد ابي علي أخذ عن خلف الاحمر : أبو علي عن ابن رستم عن ابن السكيت عن الاصمعي عن خلف [٣٦] ، وعن ابي علي أيضا أخذ ابن جني كتابي معاني القرآن للزجاج ، ومعاني القرآن للفراء ، : (وأخبرنا أيضا ـ يعني أبا علي ـ بما في كتاب المعاني عن ابي اسحاق ابراهيم ابن السري الزجاج بسماعه منه ، وبمعاني الفراء عن ابن مجاهد عن الفراء)[٣٧] .

محمد بن الحسن المعروف بابن مقسم :

أبو بكر ، ذكر ابن الجزري عددا من أئمة القراءات الذين أخذ عنهم ابن مقسم ، وقال عنه : (.. وسمع أحمد بن يحيى

ثعلب ، .. قال الداني : مشهور بالضبط والاتقان ، عالم بالعربية ، حافظ للغة ، حسن التصنيف في علوم القرآن ، وقال الذهبي : كان من احفظ أهل زمانه لنحو الكوفيين واعرفهم بالقراءات .. توفي في ثامن ربيع الآخر سنة اربع وخمسين وثلاثمائة) (٣٨) .

وذكر الاستاذ النجار ان ابن مقسم هذا كان راوية ابي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، ورجح ان يكون ابن جني قد أخذ عنه في بغداد (٣٩) . والذي في كتاب الفهرست ان ابن مقسم قد سمع من ثعلب(٤٠) ، ويبدو أن هذا السماع كان له الأثر الاكبر في أخذ ابن جني عن شيخه ابي بكر بن مقسم عن ثعلب ، فقد اطلعت على ما يزيد على اربعين رواية عن ابن مقسم في كتب ابن جني المختلفة ، فوجدتها في الغالب تتصل بأحمد بن يحيى ثعلب ، ومن طريق ثعلب أخذ عن المازني وعن الكسائي : محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى عن الكسائي (٤١) محمد بن الحسن عن احمد بن يحيى عن المازني(٤٢) . ومن طريق شيخه ابن مقسم أخذ عن ابن الاعرابي ولكن ليس من طريق ثعلب : محمد بن الحسن عن أبي الحسين أحمد بن سليمان المعبدي عن ابن اخت ابن الوزير عن ابن الاعرابي (٤٣) ، وأخذ من طريق ابن مقسم عن ابي عمرو الشيباني عن غير طريق ثعلب ايضا ، قال : (قرأت على أبي بكر محمد بن الحسن عن محمد بن يحيى المروزي عن محمد بن عمرو بن ابي عمرو الشيباني عن جده انه قال)(٤٤) .

فاذا نظرنا في اسماء شيوخه الذين أخذ عنهم وذكرهم في

كتبه بعد أبي علي وابن مقسم ، وجدناها تتصل بالرواية بالخليل وأبي زيد والاصمعي وحماد والفراء واليزيدي ومحمد ابن حبيب وأبي زيد حاتم السجستاني والمبرد وثعلب والسكري وقطرب والمازني ومحمد بن سلام ويونس وأبي عمرو بن العلاء فمن طريق ابي بكر محمد بن علي بن القاسم أخذ عن الأصمعي (٤٥) وعن المازني (٤٦) ومن طريق أبي بكر جعفر بن محمد بن الحجاج أخذ عن الاصمعي (٤٧) ، وعن محمد بن سلام(٤٨) ، وعن يونس وأبي عمرو بن العلاء (٤٩) . ومن طريق ابي صالح السليل بن أحمد بن عيسى أخذ عن الخليل وأبي زيد والاصمعي وحماد(٥٠) . ومن طريق محمد بن سلمة أخذ عن المبرد(٥١) ، ومن طريق ابي الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الاغاني أخذ عن اليزيدي وعن محمد بن حبيب(٥٢) ، ومن طريق ابي اسحاق ابراهيم ابن احمد الفرمسيني أخذ عن ابي حاتم السجستاني (٥٣) ، ومن طريق ابي سهل احمد بن محمد أخذ عن المبرد وثعلب والسكري (٥٤) . ومن طريق علي بن محمد أخذ عن قطرب (٥٥) . ومن طريق ابي الحسن محمد بن علي بن وكيع أخذ كتابا لقطرب في شواذ القراءات (٥٦) . ومن طريق محمد بن محمد أخذ عن الفراء (٥٧) .

تلامذته :

تقدم أن ابن جني بدأ حياته في التدريس شابا يافعا في الموصل ، ثم انقطع الى أبي علي النحوي يأخذ عنه . ولاشك في أنه حين تقدمت به السن ، وصار يفارق أبا علي ، كان

يختلف الى مواطن التدريس في مساجد الموصل وبغداد ، وان ناسا من طلبة العلم كانوا ياخذون عنه ، الا ان مواظبته على التدريس ، ولزومه موضع الدرس لم يتحقق الا بعد وفاة شيخه أبي علي سنة ٣٧٧هـ حيث تصدّر للتدريس مكانه في بغداد الى ان توفي سنة ٣٩٢هـ كما تقدم ، وعلى هذا يكون انقطاعه للتدريس في مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة ، وهي مدة قصيرة في اعمار العلماء ، ولعل هذا هو الذي جعل المذكورين من علماء العربية من تلامذته يعدون على اصابع اليد الواحدة ، على أنه عوض من قلة التلامذة بكثرة العناية بكتبه ، وانتشارها وحصول الفائدة بها . ومن اشهر من أخذ عنه :

عمر بن ثابت الثمانيني :

من العلماء الفضلاء قال عنه ياقوت : (ابو القاسم الثمانيني النحوي الضرير ، امام فاضل وأديب كامل أخذ عن أبي الفتح بن جني ، وكان خواص الناس في ذلك الوقت يقرأون على ابي القاسم عبدالواحد بن برهان الاسدي . وعمومهم يقراون على الثمانيني ، مات الثمانيني في سنة ٤٤٢هـ في خلافة القائم بأمر الله وهو منسوب الى سوق ثمانين بليد صغير بأرض جزيرة ابن عمر بأرض الموصل من ناحية قردي يقال انها اول مدينة بنيت بعد الطوفان وسميت بذلك لانهم زعموا أن الذين نجو في السفينة كانون ثمانين آدميا . وله من التصانيف كتاب شرح اللمع ، كتاب مفيد في النحو ، وكتاب شرح التصريف الملوكي (٥٨) . واللمع والتصريف الملوكي كلاهما من كتب

شيخه ابن جني وقد ذكر ابن الانباري(٥٩) ، والسيوطي (٦٠) أن من تلامذة الثمانيني ابا المعمر يحيى بن طباطبا العلوي صاحب كتاب عيار الشعر ، وهو مطبوع ، وذكر البغدادي (٦١) انه شرح كتاب اللمع لابن جني .

ويمكن ان نعد الثمانيني هذا الوحيد من تلامذة ابن جني المذكورين الذي خلف آثارا مكتوبة في علوم العربية ، اما بقية تلامذته فلم يكن لهم شأن يذكر في التأليف .

عبدالسلام بن الحسين البصري :

أبو احمد ، كان لغويا عالما بالقراءات ، قارئا للقرآن تولى ببغداد حفظ الكتب في (دار العلم) وكان يشرف عليها ، قرأ على ابن جني وعلى شيخه أبي علي ، كما قرأ على ابي سعيد السيرافي ، ولم يؤثر عنه تأليف ، توفي سنة ٤٠٥هـ(٦٢).

الحسين بن أحمد :

أبو عبدالله بن نصر ، ذكره ابن جني في الاجازة التي أذن له فيها برواية مؤلفاته ونعته بالشيخ وقد أوردها في معجم الادباء : (كتب ابن جني اجازة بما صورته : بسم الله الرحمن الرحيم قد أجزت للشيخ ابي عبدالله بن أحمد بن نصر ادام الله عزه ان يروي عني مصنفاتي وكتبي مما صححه وضبطه عليه ابو أحمد عبدالسلام بن الحسين البصري أيد الله عزه) (٦٣) .

أبو الحسن السمسمي :

علي بن عبيدالله بن عبدالغفار السمسمي ، أخذ عن ابن

جني[٦٤] كما أخذ عن شيخه أبـي علي ، وعــن ابي سـعيد السيرافي [٦٥] وكان لغويا ثقة ، تصدر ببغداد للرواية ، واقراء الأدب ، توفي سنة ٤١٥هـ [٦٦] ولم يذكروا له تأليفا .

علي بن زيد القاشاني النحوي

قال عنه ياقوت : (أحد اصحاب أبي الفتح ابن جني ، وجدت بخطه ما كتبه في سنة ٤١١هـ وهو صاحب الخط الكثير الضبط المعقد ، سلك فيه طريقة شيخه أبي الفتح)[٦٧] . ولم أر من ذكر له تأليفا .

ثابت بن محمد الجرجاني :

أخذ ببغداد عن ابن جني ، وعن تلميذه عبدالسـلام بـن الحسين البصري ثم رحل الى الاندلس واملى فيها كتـاب شرح الجمل للزجاج . كان اماما في العربية ، وروى كثيرا من علـم الادب ، قتل في الاندلس سنة ٤٣١هـ [٦٨] .

الشريف الرضي :

الشاعر المشهور أبو الحسـن محمد بـن الحسين بـن موسى ، ولد ببغداد سنة ٣٥٩هـ وأخذ عن علمائها ومنهـم ابن جني حيث درس عليه اللغة كما ذكر بعض المحدثين[٦٩] ، كما اشار الى أخذ الرضي عن ابن جني بعض المحدثين أيضا حيث قال : (ابو الفتح عثمان بن جني وهـو مـن مشايخ السيد الرضي) [٧٠] ويؤكد أخذه عن ابن جني واختلافه اليه قوله ـ والقصيدة في الديوان [٧١] :

وأكبر همـي أن ألاقـي فاضـلا

اصـادف منـه للغليـل بـلالا

فدى لأبـي الفتـح الافاضل انه

يبـّر عليهـم ان أرمّ وقـالا

اذا جرت الآداب جـاء أمامهـا

قريعا وجـاء الطالبـون افـالا

ويبدو أن الصلة قد توطدت بين الرجلين ، ولم تكن علاقة تلميذ واستاذ وانما هي علاقة أخ بأخيه ، فقد توفي ابن جني قبل الرضي بأربعة عشر عاما ـ حيث توفي الرضي سنة ٤٠٦هـ ـ ، وعندما بلغه نعي صديقه حزن لوفاته حزنا شديدا ورثاه بأبيات مطلعها (٧٢) :

الا يا لقومي للخطـوب الطوارق

وللعظم يرمى كل يـوم بعـارق

وفيها يقول :

لتبك أبا الفتح العيـون بدمعهـا

وألسننا من بعـدها بالمناطـق

* * *

شقيقي اذا التاث الشقيق واعرضـت

خلائق قومي جانبـا عـن خلائقـي

كأن جناني يوم وافـــى نعيـــه

فريٌ أديـــم بـــين أيدي الخوالـــق

* * *

ومن للمعـــاني فـــي الأكمـــة القيـــت

الى باقر غيب المعاني وفـــاتق

مضى طيب الاردان يأرج ذكـــره

أريج الصبا تندى بعـــرنين ناشـــق

* * *

وما احتاج بردا غير برد عفافه

ولا عرف طيب غير تلـــك الخـــلائق

* * *

تروّق ماء الودّ بينـــي وبينـــه

وطاح القذى عن سلسل الطعم رائق

مع المتنبي :

بدأت علاقة ابن جني بالمتنبي في بلاط سيف الدولة بحلب كما ذكرنا آنفا ، ثم توثقت العلاقة بينهما فيما بعد ، وكـــان المتنبي يقول في ابي الفتح : (هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس)[٧٣] ، ويقول : (ابن جني اعرف بشعري مني)[٧٤]، وكـــان ابـــن جنـــي يقـــول عـــن المتنبي : (ما عـــرفتـــه الا صادقا) (٧٥) (وسئل المتنبي بشيراز عن قوله :

وكان ابنا عدو كاثراه
له ياءي حروف أنيسيان

فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسره)(٧٦) ٠

وقد ذكر ابن جني هذه الحكاية في (الفتح الوهبي) وفسر البيت ، قال : (حدثني على بن حمزة البصري قال : كنا بشيراز وقد سئل ابو الطيب عن معنى البيت،فالتفتالي ّ وقال: لو كان صديقنا ابو فلان حاضراً لفسره ، وقال لي المتنبي يوما : أتظن ان هذا الشعر لهؤلاء الممدوحين ، هؤلاء يكفيهم منه اليسير ، وانما اعمله لك لتستحسنه ٠ أي لك ولامثالك ٠ وتفسيره : ان أنيسيان ، تحقير انسان ، يقول : فانسان ما دام على خمسة أحرف فهو يدل على التكبير واذا صار أنيسيان فزيد في عدده حرفان فقد زادت عدته لعمري الا انه نقص قدره لتحقيرك اياه ، فكذلك ايضا اذا كان للملك عدو له ابنان فكاثره بابنيه مكان ابني الملك ، فليكن ابنا عدوه ناقصين مرتين ، فهما وان زادا في عدده ، فلأنهما ساقطان قد غضا من قدره كما أن ياءي انيسيان زادتا في عدد الحروف الا انهما عادتا بتحقيره وتصغيره)(٧٧) ٠

وكان ابن جني كثيرا ما يذاكر المتنبي في شعره ومعانيه، وقد نص على أن المحدثين يؤخذ منهم في المعاني ، قال : (والمحدثون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الالفاظ) (٧٨) وترخصه هذا جعله يصرح بقراءة شعر

المتنبي عليه ومذاكرته له في معانيه ، كقوله : (هذا حصلته من المتنبي وقت القراءة عليه) (٧٩) ، (وسألته وقت القراءة)(٨٠) و (هذا جوابه لي وقد سألته عن هذا وقت القراءة)(٨١) ، وأحسب ان هذا التصريح بقراءة شعر المتنبي عليه كاف في الرد على ما جاء في معجم الادباء من زعم الطرائفي ان ابن جني لم يقرأ على المتنبي (شيئا من شعره أنفة وأكبارا لنفسه) (٨٢) وهو شديد الثقة بالمتنبي ، قال : (وحدثني المتنبي شاعرنا ، وما عرفته الا صادقا) وقد مر النص قبل قليل ، ولذا نراه لا يعقب على جواب المتنبي له في أمر بدا لابن جني اول وهلة أنه غير ممكن ، قال : (سألته في الوقت عن هذا فقلت : كيف تثور العجاجة في الشتاء ولاسيما فى البلد البارد ؟ فذكر انه شاهد الامر كذلك) (٨٣) ٠ وكان الكلام على قول المتنبي :

والماء بين عجاجتين مخلّص

يتفرقان بـــه ويلتقيـــان

(سألته ٠٠٠ فذكر انه شاهد الامر كذلك ٠ وعجاجتين : يعني عجاجة المسلمين وعجاجة الروم ٠ يقول ربما حجز الماء بينهما، وربما جازتاه فالتقتا ، قال لي : وكان الوقـت مـن الزمان حزيران ٠ وقال لي : هذا الماء من أبرد المياه وانما هو من ذوب الثلج وهو في كل وقت بارد) ٠ فأنت ترى من هذه النصوص قوة الصلة بين ابن جنى والمتنبى ، وعندما بلغه نعي المتنبي سنة ٣٥٤هـ رثاه بقصيدة طويلة منها (٨٤) :

غاض القريض وأودت نضـرة الادب
وصوحت بعـد ري دوحـة الكتب

سُلبت ثـوب بهاء كنت تلبسـه
كمـا تخطف بالخطيـة السلب

ما زلت تصحب في الجلى اذا انشعبت
قلبـاً جميعاً وعزما غيـر منشعب

وقد حلبت لعمري الدهـر أشطره
تمطـو بهمـة لا وان ولا نصـب

من للهواجل يحيي ميت أرسـمها
بكـل جائلة التصدير والحقـب

أم للمحافل اذ تبـدو لتعمرهـا
بالنظم والنثر والامثـال والخطـب

* * *

باتـت وسـادي أطـراب تؤرقنـي
لما غدوت لقى في قبضة النـوب

عمرت خدن المساعي غيـر مضطهـد
كالنصل لث يدّنس يوما ولم يعب

فأذهب عليك سلام المجد ما قلقت
خوص الركائب بالاكوار والشعب

ثقافتــــه :

كان ابن جني كثير الاتصال بالعلماء ، فأخذ عنهم ، ووعي ما أخذ ، وكان أكثرهم اثراً فيه أباعلي النحوي كما تقدم ، وقد ظهر أثر شيوخه فيما كتب من فنون شتى ، مما يدل على ثقافة واسعة وعلم جم غفير ، فقد كتب في النحو واللغة والتصريف والعروض والقراءات والاصوات ، وغير ذلك · وقد وجدت انه كان شديد الاعجاب بما يكتب ، ويظهر أثر هذا الاعجاب في عبارات منثورة في هذا الكتاب او ذاك · وهو على ما في كتاباته من الروح العلمي والاتزان في الرد على الآراء المخالفة ، قد يقسو في رده أحيانا · وعلى شدة الوضوح في عبارته قد يضطرب فيها حتى يوقع قارئه في الوهم · أما مذهبه النحوي فقد كان بصريا على ما أثير حول هذه المسألة من شبهة · وفيما يأتي تفصيل ما أوجزناه :

اعجابه بما يكتب :

نرى ابن جني معجبا بما يكتب أحيانا أيما اعجاب ، يتلفت حوله فلا يجد أحدا ممن سبقه من العلماء ، او ممن عاصره ، قد اشبع القول في مسألة ما كما فعل هو ، او غاص على دقائق أسرار مسألة اخرى كما غاص هو ، أو شرح غامضا كما فعل هو ، فلا يتردد في التصريح بهذا الاعجاب ، ولكنه

اعجاب يحوطه الروح العلمي الذي عرف به ، فهو لا يقول ان ما أورده لم يسبقه أحد اليه ، أو ان احداً لم يبلغ فيه الغاية التي بلغها هو ، وانما يضع أمام ذلك كلمة (فيما أعلم) او (ولا أعلم احدا ٠٠) ، وما أشبه ذلك ، مما يجعل الحكم الذي يصدره مصرحا ببنائه على ما علم هو ، لا على ما هو واقع على سبيل القطع من غير ان يترك فسحة للتراجع اذا وجد غيره شيئاً يقرب مما قال ٠

فمن ذلك مثلا قوله في باب ترافع الاحكام : (هذا موضع من العربية لطيف ، لم أر لأحد من أصحابنا فيه رسما ، ولا نقلوا الينا فيه ذكرا)(٨٥) وكذلك اعجابه بشرحه ارجوزة ابي نواس ، وقد سمّى الشرح تعريبا ، قال : (٠٠٠ قد انتهيت من تعريب هذه القصيدة بما قرب وكفى ولولا الاطالة لبسطتها اكثر من هذا ٠ وما رأيت أحداً من أصحابنا نشط لتعريب شعر محدث على هذه الطريقة لأن تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على لغة واعراب وشعر ومعنى ونظر وعروض واشتقاق وشيء من علم القوافي)(٨٦) ٠ ومن ذلك قوله : (فهذه أحكام الاصوات والحروف في امتناع اشتقاقها وما يقتضيه القول في قبيلها ، ولم أر احداً من اصحابنا أشبع القول فيها هكذا)(٨٧)٠ وقوله : (والذي أراه أنا في هذا وما علمت أحدا من اصحابنا ولا غيرهم ذكره ، ويشبه أن يكونوا لم يذكروه للطفه)(٨٨)٠

وهو في بعض الاحيان يقلل من شدة اعجابه ويكتفي بالتنبيه على قلة خوضهم فيما خاض فيه ، فمن ذلك مثلا قوله :

(... فأعرفه ، فقلما أفصح أصحابنا هذا الافصاح) (٨٩) ،
ونراه أحيانا لا يذكر أصحابه وانما يكتفي بالقول انه أحاط بالمسالة ولم يترك منها شيئا كقوله : (.. وقد تقصيت جميع ما جاء منه مطرداً وشاذا ، وقلما تجد شيئاً يخرج عن هذا)(٩٠).

وقد غلبه تواضعه في موضع آخر بعد أن نص صراحة على أن أصحابه لم يشبعوا القول في مسألة أوردها ولم يحتط فيها على عادته بكلمة (فيما أعلم) أو ما أشبه ، فالحق باعتداده كلمة تواضع تحكي تواضع الطالب أمام شيوخه قال : (فهذا كله يؤكد عندك أن امتناعهم من استعمال آل في جميع مواقع أهل انما هو لان الالف فيه كانت بدلا من بدل ، كما كانت التاء في القسم بدلا من بدل فاعرفه ، فان أصحابنا لم يشبعوا القول فيه على ما أوردته الآن ، وان كنا بحمد الله بهم نقتدي وعلى أمثلتهم نحتذي) (٩١) .

قسوته في الرد احيانا :

يعرض ابن جني آراء العلماء التي يخالفها من غير تجريح ثم يحاول ان يفندها بالادلة والبراهين التي تحضره ، هذه هي السمة الغالبة على ما كتب ، الا أنه في بعض الاحيان يخرج على هذا الروح العلمي ، فيسخر من رأي ويتجاهله وان كان ذلك الرأي لواحد من كبار العلماء كثعلب مثلا : (ومن طريف ما يروى من أمر الباء أن احمد بن يحيى قال في قول العجاج : يمد زغداً وهديراً زغدبا ، ان الباء زائدة ، وذلك انه

لما رآهم يقولون هدير زغد وزغدب اعتقد زيادة الباء في زغدب، وهذا تعجرف منه وسوء اعتقاد ، ويلزم من هذا أن تكون الراء في سبطر ودمثر زائدة ، لقولهم سبط ودمث ، وسبيل ما كانت هذه حاله الا يحفل به ولا يُتشاغل بافساده) (٩٢) ٠

ولسائل ان يسأل اذا كان هذا الرأي من التفاهة بالمكان الذي ذكر فعلام أورده ثم أهمله ؟ وهل ثعلب من السذاجة بحيث يقول كلاما لا يحفل به ولا يستحق أن يتشاغل بافساده ؟ ألا يمكن أن يكون قد أراد من الزيادة معنى التصاقب الذي أورده ابن جني فيكون الهدير الزغدب أشد من الزغد لان فيه حرفا أصلا الا انه زائد على حروف كلمة زغد ؟

ومن ذلك قوله : (اعلم أن الف الوصل همزة تلحق في أول الكلمة توصلا الى النطق بالساكن وهربا من الابتداء به اذ كان ذلك غير ممكن فى الطاقة فضلا عن القياس ، وليس لقول من جوز الابتداء بالساكن من القدر ما يتشاغل بافساده وانما سبيله في هذا سبيل من شك في المشاهدات من السوفسطية ومن ليس بكامل العقل) (٩٣) ٠ فنحن نراه هنا يستخف برأي القائل بجواز الابتداء بالساكن ويحشره مع السوفسطية ومن ليس بكامل العقل ، وهي قسوة في الرد كما هو واضح ، وهو على هذه القسوة هنا نراه يذكر في موضع آخر الابتداء بالساكن ذكراً غير مستهجن ، بل انه ينسب الى شيخه ابي علي عدم الاستيحاش منه في لغة العجم ، وكلامه وان كان في لغة العجم الا انه نقض لقوله : غير ممكن في الطاقة (ورأيت

مع هذا أبا علي رحمه الله كغير المستوحش من الابتداء بالساكن في كلام العجم) (٩٤) ٠ بل ان ابن جني نفسه يسمعهم يبدأون بالساكن (فأسمعهم كثيراً اذا ارادوا المفتاح قالوا : كليد ، فان لم تبلغ الكاف أن تكون ساكنة فان حركتها جد مضعفة حتى ليخفى حالها عليّ فلا أدري أفتحة هي أم كسرة) ٠ واذا خفيت الحركة الى هذا الحد حتى لا يدري أفتحة هي أم كسرة فلا أظن من الصواب أن نسميها حركة ٠

اضطرابه :

القارىء لكتب ابن جني يرى عقلية منظمة غاية التنظيم فهو لا يكاد يغادر مسألة الا بعد ان يشبعها بحثا ويوضحها بصورة وافية ويجردها من غيرها نلا تلتبس بشيء ، الا أنه قد يورد الامر أحيانا ظاهرة أنه ليس مما هو بسبيله ثم يمضي في الاستدلال حتى ينتهي الى انه مندرج تحت ما يبحثه ، مما يسبب للقارىء حيرة واضطرابا في أول الامر ، فاذا صبر على ما يورده ابن جني ظفر بعد ذلك بمراده ، وان تعجل الامر ولم يتتبع ما يقوله نفر وتحير فيما يورده ، وقد وقع في هذا الاساتذة محققو سر صناعة الاعراب ، ٠٠ فقد أورد ابن جني وهو يتكلم على ابدال الهمزة من الالف قول الراجز :

من أي يوميّ من الموت أفر
أيوم لم يقدر أم يوم قدر

ومضى يتحدث عن فتح الراء في يقدر ومجاورتها لهمزة أم . فعلق محققو الكتاب على ذلك بقولهم : (بحثنا عن وجه

مناسبة قول الراجز الذي أورده المؤلف هنا للموضع الذي سبقه ، وهو ابدال الالف همزة عند الوقف فلم نهتد ٠٠)[٩٥]

والحق أن كلام ابن جني كان متسقا مع بداية الفصل ، فقد مضى ينتقل من استدلال الى آخر من ص٨٥ ، حتى انتهى بعد تسع صفحات ، أي في ص٩٣ ، الى القول بأن الهمزة منقلبة عن ألف ، وكلامه من بداية الفصل كان في هذا ، الا ان طول الاستدلال كما قدمت كان السبب في هذا الاضراب وقد أحس ابن جني بطول الاستدلال فقال : (٠٠ فهذه أيضا همزة قلبت عن ألف أعني همزة أم ، وهي بدل من ألف هي بدل من همزة . فهذا وان لطف وطالت صنعته أولى من ان تحمل الكلمة على حذف نون التوكيد لما فيه من قلة النظير وضعف القياس)[٩٦] ٠

مذهبه النحوي :

كان د ٠ فاضل السامرائي في كتابه : ابن جني النحوي ، قد انتهى بأدلة كثيرة الى أن ابن جني (بصري المذهب حسب ، لا بغدادي ولا كوفي) [٩٧] ٠ ثم زعم د ٠ عبدالفتاح الدجني بعد عشر سنوات من ظهور دراسة د ٠ فاضل أن ابن جني لم يكن بصريا من غير ان يعرض لاسقاط الآراء التي وردت في كتاب ابن جني النحوي أو مناقشتها ، مما دعانا الى ان نقف وقفة قصيرة عند هذا الموضوع ، قال د ٠ الدجني : (هذا باحث آخر يرى ان ابن جني كان كشيخه أبي علي بصريا ٠٠ والحقيقة أن كلا العالمين بغداديان) [٩٨] ولم يلبث ان قال عن النحو البغدادي : (لقد تفرقت آراء نحاة بغداد تفرقا شديدا

فذهبوا في آرائهم مذاهب متباينة فمنها البصري ومنها الكوفي ومنها الجديد المستحدث ، ولذا صعب على الدارس أن يلم بهذه الآراء ... والخلاصة ان النحوي البغدادي لم يكتب له النجاح في رأينا للاسباب التي ذكرتها آنفا مضافا اليها رأي الشيخ الطنطاوي وهو قصر المدة التي عاشها النحو البغدادي) (٩٩) . ولا نعرف هذا النحو بهذا الوصف عند ابن جني ، وقد ذكر الدجني مسائل مستحدثة عند البغداديين ليس فيها شيء لصاحبنا (١٠٠) . الذي نقوله في هذا بايجاز : ان النحو في كتب ابن جني نحو بصري ، مع ظهور الاجتهاد الشخصي فيه شأنه في ذلك شأن الاخفش والمبرد وغيرهما ممن لم يختلف في القول ببصريته ، ونكتفي في الاستدلال على ذلك زيادة على ما أورده د . السامرائي بمايلي :

قال ابن جني : (وذهب الكوفيون الى .. وليس الامر عندنا نحن كذلك) (١٠١) .

وقال : (كذا قياس مذهبنا نحن فأما الكوفيون فيرون ..)(١٠٢) . فلم يكن على هذا كوفيا .

وقال : (هذا عند أصحابنا .. وأنا أرى في هذا رأي البغداديين .. ولا قرابة بيني وبين البصريين لكنها بيني وبين الحق والحمد لله) (١٠٣) .

وقال : (فمذهب أصحابنا فيه وفي مثله .. ومذهب البغداديين .. ، غير ان لاصحابنا الا يقبلوا من اللغة الا ما روي عن فصيح موثوق بعربيته) (١٠٤) .

وقال : (والامر عندي بخلاف ما ذهب اليه ابن درستويه ٠ وان كان من أصحابي ، وقائلا يقول : مشيخة البصريين ، في غالب أمره ، وكان أحمد بن يحيى كوفيا ، قلنا : فالحق أحق أن يتبع أين حل وحيث صقع)(١٠٥) ٠

فالبصريون اذن هم أصحابه ، وهو مجتهد كما قدمنا ٠

مصادر دراسته :

نستطيع أن نجمل مصادر دراسة ابن جني بالاخذ من الشيوخ ، والاخذ من الكتب ، ومشافهة الاعراب ، واعتماد شواهد العربية ، والقياس :

الاخذ من الشيوخ :

كان لابن جني كما اسلفنا اكثر من شيخ نجد آثارهم واضحة فيما كتب ، فقد كان أمينا فى الاخذ عنهم ، حريصا على أن يدون عباراتهم بحروفها اذا وجد الى ذلك سبيلا ، وهو لا يأخذ اللغة الا من العلماء الذين عرفوا بطول باعهم فيما يأخذ عنهم ، وكانت العلوم التي يأخذها عنهم على قسمين : رأي ، ورواية ، فاذا كانت رواية تلقاها بالقبول ولم يظهر تشككه فيها ، ثقة منه بالرواة وعدالتهم ، حتى لنراه يقول في مسألة : (ولو كان لها أصل في كلام العرب لنقلته الرواة)(١٠٦) ٠ بل أنه عقد بابا فى الخصائص بعنوان : باب صدق النقلة وثقة الرواة والحملة ، وهو يأخذ الرواية بالقبول وان كانت مخالفة لقياسه ٠ فان كانت منفردة او قليلة نص على انها من الشاذ الذي لا يقاس عليه ، ولم يتحول الى رد

الرواية ، من ذلك مثلا قوله : (وحدثني أبو علي .. أنهم سمعوا العرب تفتح اللام الجارة مع المظهر .. وهذا من الشذوذ بحيث لا يقاس عليه) (١٠٧) . هذا اذا كان ما يتلقاه من الشيوخ رواية ، فان كان رأيا فانه يعمل فيه فكره فاذا ظهر له شيء غير ما ذكر شيخه ذاكره فيه ، وسأله عنه ، وأظهر له ما في خاطره ، ومذاكراته التي وجدتها كانت مع أبي علي فمن ذلك مثلا قوله : (فقلت أنا لأبي علي : ما تنكر أن يكون قلته أقيله ، من الواو ، الا انه جاء على فعِل يفعِل ، ونظيره من الصحيح : حسِب يحسِب . فقال : ليس ذلك بالكثير)(١٠٨). وقوله : (وقلت مرة لأبي علي وفوائت الكتاب تقرأ عليه ، وقد مر بنا منها : عياهم ، فياعل ، فقلت له تكون عينه بدلا من همزة أياهم أفاعل ، كأحامر ، واجادر وأباتر ، فقال : هذا عجب من العجب)(١٠٩) ، ولم أجد له مذاكرة مع غير أبي علي في ما رجعت اليه ، الا ما كان مع المتنبي في مسائل المعاني وقد تكلمنا على ذلك في فقرة (مع المتنبي) التي تقدمت . هذا عن المذاكرة ، أما الاخذ ، فقد كان أكثر ما أخذه من شيخه أبي علي ثم من شيخه ابن مقسم ، ثم من عدد من شيوخ زمانه ، وقد تقدم الكلام على ذلك .

الأخذ من الكتب :

أخذ ابن جني علمه بالدرجة الاولى عن شيوخه ، أما الكتب فقد ذكر قراءته عدداً منها عليهم وأغفل ذكر قراءته عدداً آخر وهو ينقل منها ، والذي أميل اليه أنه قرأ على

شيوخه الكتب التي أخذ منها وان لم يصرح بذلك ، دعاني الى هذا شدة كلفه بالرواية ، وعناية العلماء آنذاك بالأخذ عن الشيوخ والقراءة عليهم ، وميلهم الى أن لا يأخذ العالم من الكتب من غير شيخ ، وقد وجدنا بعضهم يطعن في أبي الفرج الاصبهاني لأنه (كان يدخل سوق الوراقين فيشتري شيئا كثيرا من الصحف فيروي منها)(١١٠) ، وقد أثنى ابن جني على المازني بأنه أخذ عن جلة أهل العلم ، ولم يقل لانه أخذ من كتاب كذا ، قال : (فان أبا عثمان قدوة وحجة وقد أخذ عن جلة أهل العلم كأبي زيد وأبي عبيدة والاصمعي وابي عمر الجرمي وأبي الحسن الأخفش وغيرهم ممن هو في هذه الطبقة) (١١١) ، وقد وجدته في كتبه يذكر :

كتبت أو نسخت أو نقلت ..

قال : (وأما كتاب « الجمهرة » ... ولما كتبته وقعت في متونه وحواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما ما استحييت من كثرته) (١١٢) وقال : (ونسخت من خط أبي بكر محمد بن السري وقرأته على أبي علي ، قال : قال أبو العباس) (١١٣) . وقال : (ونقلت من خط أبي بكر محمد بن السري وقرأته بعد ذلك على أبي علي)(١١٤) .

رأيت أو وجدت أو قرأت بخط فلان أو في كلام فلان .

قال : (ورأيت هذا الكتاب بخط ابي العباس محمد بن يزيد فالتمست فيه هذه اللفظة في باب الهمزة والياء فلم أر

لها هناك أثراً)(١١٥) · وقال : (ووجدت بخط أبي علي عن الفراء) (١١٦) ، وقال وقد ذكر ابا علي : (قرأته بخـطه أن الفراء حكى)(١١٧) ، وقال : (وهذه علة في الهمزة كنت قديما أنا رأيتها ، ثم غبرت زمانا فرأيت بعض كلام أبي بكر محمد بن السري رحمه الله قد أوردها فيه غير مسندة الى غيره ، ثم اني رأيتها بعد ذلك في بعض كلام الفراء ، فلا أدري أأصاب أبا بكر مع الفراء ما أصابني أنا من المواردة له ، أم هـو شيء سـمعه فحكاه واعتقده) (١١٨) ·

قرأت على فلان :

أ ـ في كتاب كذا

قال : (··· حكاه أبو زيد فيما قرأته على أبي علي في كتاب الهمز عنه) (١١٩) ، وقال : (وقرأت على أبي علي في نوادر أبي زيد) (١٢٠) ، وقال : قرأت على ابن مقسم باسناده عن أبي عمرو الشيباني في نوادره) (١٢١) ·

ب ـ في بعض كتب فلان :

قال : (وقرأت على أبي علي فـي بعض كتـب أبـي زيد)(١٢٢) ·

جـ ـ من غير ذكر لكتاب او كاتب او سند :

قال : (واما ما قرأته على محمد بن الحسن مـن قـول الآخر) (١٢٣) · وقال : (وقرأت على أبي علي) (١٢٤) ·

قال فلان أو حكى أو انشد

أ ــ في كتاب كذا

قال : (وقد حكى أبو زيد في كتاب «حيلة ومحالة» مكان مبقل) (١٢٥) . وقال : (وهذا الموضع هو الذي دعا أبا العباس أحمد بن يحيى في كتاب «فصيحه» أن أفرد له بابا فقال هذا باب فعل بضم الفاء ..)(١٢٦) ، وقد أكثر من الأخذ عن سيبويه مكتفيا بايراد اسمه أحيانا من غير ذكر للكتاب او بذكر الكتاب من غير ايراد اسمه ، وقد يقول : قال صاحب الكتاب ، ومعلوم أنه ليس لسيبويه غير هذا الكتاب ، وأن ما ينسب اليه من قول انما هو مما قاله في كتابه ، ولا نعرف أحدا نقل عن سيبويه مسألة من غير الكتاب ، وعلى هذا فأن كل ما أخذه عن سيبويه يندرج تحت هذا العنوان سواء ذكر انه قال في كتابه ام لم يذكر) (١٢٧) .

ب ــ من غير ذكر لكتاب او اسناد :

أورد ابن جني أقوالا وحكايات وانشادا لعدد من العلماء المتقدمين من غير أن يذكر الاسناد اليهم او الكتاب الذي اخذ منه ، فمن هؤلاء (١٢٨) : أبو عبيدة ، وثعلب ، وأبو زيد ، والأصمعي ، والفراء ، والخليل ، والمبرد ، وقطرب ، ويونس ، وابن الاعرابي ، وابن كيسان ، والزجاج ، ولا ريب في انه أخذ عنهم وعن غيرهم من العلماء ممن لم نذكرهم ، عن رواية ، او كتاب مقروء على شيخ ، الا انه لم يصرح بأي واحد من الطريقين .

مشافهة الاعراب :

كان القرآن الكريم الكتاب المدون الوحيد الذي أخذ منه العلماء اللغة ابّان تدوينها ، وان كان اعتمادهم على روايته أكثر من تدوينه ، فما اكثر ما نجده عندهم من نحو كلمة قرأ فلان كذا ، وقرأ فلان كذا ، وهذه قراءة فلان . وقرأت على فلان . وكانت صحف من الحديث النبوي مدونة أيضا لعدد من الصحابة والتابعين(١٢٩) ، الا ان علماء العربية انقسموا فريقين في الاستشهاد بالحديث كما سيأتي ، وفيما سوى ذلك كان الاعتماد على مشافهة الاعراب والأخذ عنهم . والأخذ عمن شافههم ، فكان العلماء يستمعون الى الشواهد من رواتها معزوة الى قائليها من أبناء القبائل التي نصوا على الأخذ منها (١٣٠) ، واضعين في شروطهم أن يكون الناقل عدلا ثقة(١٣١) . ولم يكتفوا بالأخذ من الرواة وانما رحلوا الى الى القبائل في مواطنها وسمعوا من ابنائها ودونوا ما سمعوه (١٣٢) . وهم لم يأخذوا من قبائل العرب جميعا بل سموا قبائل تؤخذ منها اللغة (١٣٣) ، امتد الأخذ عن ابنائها الى أن ختم بابراهيم بن هرمة المتوفى في اواسط القرن الثاني للهجرة ، (ختم الشعر بابراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج)(١٣٤) . فعلماء العربية من الناحية النظرية قد أوقفوا الأخذ عن العرب في الامصار في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وقد حدد منتصف القرن الرابع للاستشهاد بعرب البادية(١٣٥) . أي انه لم يكن هناك مجال لابن جني لأن يأخذ من عرب الأمصار شفاها ، فعهد الأخذ منهم قد مضى قبل زمانه ،

كذلك مضى وقت الاخذ عن أهل البادية قبل اكتمال نضجه او كاد كما سيأتي من كلامه ، وهو وان ذكر أنه (لو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ٠٠ لوجب الأخذ عنهم) (١٣٦) ، الا أنه نص على انعدام ذلك في زمانه بقوله : (لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الالسن وخبالها ٠٠ لوجب رفض لغتها ٠٠ وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا لأنا لانكاد نرى بدويا فصيحا ، وان نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه ٠٠) ، وقوله : لا نكاد نرى ، يدع الطريق أمامه مفتوحا ليأخذ كلام أعرابي يثبت له الفصاحة ، أو يسأل اعرابيا فصيحا عن كلمة كما سيأتي ، أو يأنس بكلام بعضهم ليقوي رأيا على رأي ، فقد رأيناه يأخذ عن الشجري ويثبت له الفصاحة وعدم التكلف ، وكان يأنس به ويسأله ويأخذ عنه ، ونجد اسمه يتردد في أكثر من موضع في كتبه ، فهو يقول : سألت الشجري (١٣٧) ، او : سمعت الشجري (١٣٨) ، او : انشدني الشجري (١٣٩) ، الا أن ما أخذه ابن جني عنه وعن غيره من معاصريه من الاعراب لم يكن شيئا اساسيا لاغنى عنه ، وقد نظرت في ذلك بعد أن حصرته فوجدته لا يعدو الأستئناس حين يتحدث عن مسألة ما ، ولم أجده جعل مما قاله الشجري او معاصروه قاعدة البتة ، والمسائل التي أخذها عن الشجري وغيره من معاصريه على وجه الحصر مايأتي :ـ

١ ـ الأعراب لا يعرفون الصناعة اللغوية :

ذكر ابن جني حكاية عن الأخفش ، أنه سأل أعرابيا فأجابه على مقتضى اللغة لا الصناعة ، ثم قال : (ونحو من ذلك أني سألت الشجري فقلت : كيف تجمع المحرنجم ؟ فقال : وايش فرّقه حتى أجمعه ! .. فجاء بالمعنى الذي يعرفه هو ولم يراع مذهب الصناعة (١٤٠) . فقد ساق هذا تأكيدا لما اورده الأخفش ، ولو لم يذكره لما أخل بالمراد .

٢ ـ أنهم يتأملون كلامهم ويعطونه حقه في اللفظ .

يذكر ابن جني أن العرب تتأمل كلامها ومعانيه ، وفي ضوء هذا التأمل يكون نطقها ، وقد استدل على ذلك بروايات عن أبي عمرو وسيبويه وأبي العباس ، ثم ذكر تأييدا لذلك انه سأل الشجري يوما : (يا أبا عبدالله ... أفتقول ضربت اخوك ، فقال : لا أقول أخوك أبدا ، قلت فكيف تقول : ضربني أخوك ، فقال : كذاك ، فقلت : الست زعمت انك لا تقول اخوك ابداً ، فقال ايش ذا ؟ اختلفت جهتا الكلام (١٤١) .

٣ ـ جنوحهم الى الخفة .

في خلال كلامه على جنوح العرب الى الخفة والتماسهم اياها قال :

وسألت غلاما من آل المهيا فصيحا عن لفظة من كلامه لا يحضرني الآن ذكرها فقلت : أكذا أم كذا ، فقال : كذا بالنصب لأنه أخف ، فجنح نحو الخفة ، وعجبت من هذا مع ذكره النصب بهذا اللفظ ، وأظنه استعمل هذه اللفظة

لانها مذكورة عندهم في الانشاد الذي يقال له النصب مما يتغنى به الركبان) (١٤٢) ، وانظر كيف تكلف في الاعتذار له عن كلمة النصب ليستقيم له ما قرره من أن الاعراب لا يعرفون الصناعة ، ولست أدري ماذا كان يضيره لو ذهب الى احتمال سماع هذا الغلام الكلمة من شيخ في مسجد مثلا حيث كانت علوم العربية تدرّس ٠

٤ ـ امتحان الفصاحة :

كان ابن جني يمتحن فصاحة الاعراب الذين يتصل بهم شأنه في ذلك شأن من سبقه من العلماء ، وقد ذكر (أن الاعرابي الفصيح اذا عدل بـه عن لغته الفصيحة عافها ولم يأبه بها) (١٤٣) ، وذكر امتحانه للشجري وابن عم له دونه في الفصاحة فنجح الشجري في اثبات ما قرره ابن جني للاعرابي الفصيح : (سألت مرة الشجري أبا عبدالله ومعه ابن عم له دونه في فصاحته وكان اسمه غصنا ، فقلت لهما كيف تحقران حمراء ، فقالا حميراء ، قلت : سوداء ، قالا سديداء ، وواليت من ذلك أحرفا وهما يجيئان بالصواب ، ثم دسست في ذلك « علباء » فقال غصن : عليباء ، وتبعه الشجري ، فلما هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال آه ، عليبي) (١٤٤) ٠

٥ ـ بيان معنى كلمة :

قال : (٠٠ أويت لنفسي أية ، معناها رحمتها ورققت لها ، وسألنا الشجري أبا عبدالله يوما عن فرس له ، فقال : هي بالبادية ٠٠ قلنا : لم ، قال انها وجية فأنا آوي لها ، أي

أرحمها وأرق لها)[١٤٥] . فنراه هنا بعد أن اورد معنى الكلمة جاء باستعمال الشجري ليؤكد المعنى الذي ذكره لها .

٦ ـ اختلاس الحركة للضرورة :

في باب في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعداً ذكر قول الشماخ :

لــه زجل كأنــه صوت حــاد
اذا طلــب الوســيقة أو زميــر

وأشار الى أن الاختلاس في (كأنهو) ليس لغة انما هو بسبب لصنعة ، ثم قال : (وأنشدني الشجري لنفسه :

وانّا ليرعى في المخــوف سوامنا
كأنه لم يشعر به مــن يحــاربه

فأختلس ما بعد هاء (كأنه) ومطل ما بعد هاء (بهــي) واختلاس ذلك ضرورة وصنعة على ما تقدم به القول) [١٤٦] .

٧ ـ تداخل الاصول :

يرى ابن جني في باب تداخل الاصول الثلاثية والرباعية والخماسية أن في اللغة من الافعال ما يتوهم كثير من الناس أن بعضها من أصل بعض ، وهي في الحقيقة من أصل غيره ، ويذكر لنا عددا من هذه الافعال ، منها في تزاحــم الثــلاثي والرباعي : (زرم وأزرأم وخضل وأخضأل)[١٤٧] . وبعد ان ينتهي من الكلام على تزاحم الثلاثي والرباعي يعود ليقول : (وأنشدني الشجري لنفسه :

أناف على باقي الجمال ودففت

بأنوار عشب مخضئل عوازبه)[148]

ولا يعلق شيئا على قوله وكأنه استغنى بما سبق أن ذكره من أن خضل وأخضال أصلان ·

٨ ـ استعمال الحروف بعضها مكان بعض :

في باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض ذكر أنهم (يقولون تكون الباء بمعنى عن ، وعلى . وأنشدني الشجري :

أرمي على شريانة قذاف

تلحق ريش النبل بالأجواف)[149]

واوضح رأيه في كل ذلك بأنه لا ينبغي أن يكون على اطلاقه وانما (يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية اليه) ولم يعرض للابيات التي أوردها بشيء ومنها بيت الشجري ·

٩ ـ تقريب الصوت من الصوت :

في كلامه على تقريب صوت من صوت وادنائه منه من غير ادغام ، وهو ما أطلق عليه الادغام الأصغر قال : (ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو شعير ، وبعير ، ورغيف ، وسمعت الشجري غير مرة يقول : زئير الاسد ، يريد الزئير)[150] · فكلمة الشجري يستأنس بها في هذا الموضع مع ما ذكر مما ورد عن العرب ·

١٠ ـ فتح الحرف الحلقي :

وذلك نحو فتح الحاء في محموم والعين في يعدو ، وقد تناوله ابن جني في اكثر من موضع [١٥١] ، وهو في كل ذلك يورد كلاما للشجري أو لبعض قومه من عقيل ، ثم انتهى الى اجازة فتح حرف الحلق . قال : وهو (.. قول البغداديين فيه ، واني أرى فيه رأيهم ، لا رأي أصحابنا ..)[١٥٢] ، فقد جعله كلام الشجري والفصحاء من قومه بني عقيل يتحول عن رأي أصحابه في هذه المسألة ، وهي مسألة مفردة لا أخت لها عنده بالقدر الذي اطلعت عليه من كتبه .

من كل ما مر يتبين لنا ان ما أخذه من الشجري ومعاصريه لم يكن على سبيل التقعيد عن طريقه وانما للاستئناس ، او لتأييد قول ، الا في مسألة فتح الحرف الحلقي حيث ادى سماعه منهم الى تحوله في تلك المسألة عن مذهب أصحابه البصريين .

شواهد العربية وموقفه منها

القرآن وقراءاته

أجمع العلماء على أن كلام الله سبحانه في كتابه الكريم هو أعلى نص بلغة العرب ، وهو الغاية في البلاغة والفصاحة ، فجعلوه مدار استشهادهم في كتبهم ، ولا نعلم أحداً منهم خالف في ذلك . يستشهدون بما ورد منه على السنة الرواة ، لا فرق في ذلك بين متواتره وشاذه [١٥٣] ، وابن جني واحد من هؤلاء العلماء الذين عرفوا للقراءات مقامها . بل انه اربى على من

سبقه بأن الف كتابا في الاحتجاج للقراءات الشاذة واحتسبه لله تعالى ومن هنا جاء أسمه : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها . قال في مقدمته : (.. فسماه أهل زماننا شاذاً ، أي خارجا عن قراءة القراء السبعة المقدم ذكرها ، الا أنه مع خروجه عنها ، نازع بالثقة الى قرائه ، محفوف بالرواية من امامه وورائه ، ولعله أو كثير منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه .. لكن غرضنا منه أن نري قوة ما يسمى الآن شاذاً ، وانه ضارب في صحة الرواية بجرانه ، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه)(١٥٤) .

الحديث :

لم تتفق كلمة العلماء على الاستشهاد بما روي من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر البغدادي(١٥٥) ، ان الاستدلال بالحديث جوزه ابن مالك وتبعه الرضي ، ومنعه ابن الضائع وأبو حيان ، وفي فهرس شواهد سيبويه(١٥٦) ذكر خمسة أحاديث فقط وردت في الكتاب ، ولست هنا في موضع تصحيح الاستدلال بما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو ترك التصحيح(١٥٧) ، انما الذي يعنيني هو موقف ابن جني منه ، فأنا لم أجد له كلمة يفهم منها انه لا يرى صحة الاستدلال بالحديث بل ان في الخصائص ما يمكن ان يعد تصريحا بالاستدلال بالحديث قال : (وعلى ذلك عامة ما جاء في القرآن، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده رضوان الله عليهم ، وما وردت به الاشعار ، وفصيح الكلام)(١٥٨) . وقد أورد في كتبه أحاديث اربى ما احصيته منها على

الثلاثين[١٥٩] ، وهو عدد يكفي في نظري للتدليل على انه يجيز الاستدلال بالحديث ولاسيما اذا ضممنا اليه نص الخصائص الذي ذكرته آنفاً .

كلام العرب وامثالهم واشعارهم :

في كلامنا على مشافهة الاعراب ذكرنا أن زمانه لم يكن زمن أخذ وتلقٍ من الاعراب . وأنه اخذ القليل من الشجري وبعض فصحاء عقيل ، وقد أخذ شواهده بالرواية عن طريق شيوخه كما تقدم . ولست أرى ضرورة لاعادة الكلام في هذا ، وانما هناك أمر يستحق ان نقف عنده ونحن نتكلم على شواهده الشعرية ، ذلك هو طريقه الى هذه الشواهد ، فقد ذكرنا انه أخذ علمه ومنه الشواهد من عدد من لعلماء منهم أبو علي وابن مقسم وأبو الفرج وأبو سهل والسليل وابن الحجاج وغيرهم ، الا انني نظرت في عبارته وهو يورد الشاهد فوجدته في (سر الصناعة)[١٦٠] لم يقل أنشدنا او انشدني الا اذا كان المنشد أبا علي ، فاذا كان المنشد غير ابي علي اكتفى بقوله : أنشد فلان ، من غير ان يضيفه الى نفسه ، اما في (الخصائص) فانه قل أن يذكر شاهداً باسناده ، انما كان يوردها مباشرة كقوله مثلا : قال العجاج ، قال الراجز ، أنشد ابو الحسن ، وبيت الكتاب ، وأنشد ابن الاعرابي[١٦١] ، الا أنني وجدته في موضع قال : أنشدنا أبو علي وفي آخر قال : انشدني بعض أصحابنا [١٦٢] ، وفي (المنصف) [١٦٣] التزم ما ذكرناه في سر الصناعة الا في ثلاثة [١٦٤] ، مواضع حيث قال انشدنيه

بعض أصحابنا ، وقال : انشدنا ابن مقسم ، وقال : انشدنيه بعض أشياخنا ، والتزمه أيضا في المحتسب (١٦٥) الا في ثلاثة مواضع (١٦٦) حيث قال : انشدني بعض أصحابنا ، في موضعين ، وقال : أنشدونا ٠

هذه الظاهرة التي أوردناها تحملنا على ان نقرر ان سماعه الشواهد الشعرية كان عن طريق أبي علي ، وانه لم يسمع من شواهد الشعر عن غير طريق أبي علي الا اليسير الذي لا يعتدبه ، اما الشواهد الشعرية الكثيرة التي نراها في كتبه مما لم يذكر فيها كلمة أنشدني فقد أخذها بالرواية من العلماء الذين ذكرناهم آنفا وفيهم أبو علي ، فكأنه خص أبا علي بهذه الكلمة لأنه لم يشرك معه أحداً في السماع ، فاذا اشترك ابن جني في الأخذ مع غيره ، أو كان الاخذ من الكتب قراءة على الشيخ سواء أكان ابا علي أم غيره ، تجنب كلمة أنشدني ٠

القياس :

عرف العلماء القياس بأنه (حمل غير المنقول على المنقول اذا كان في معناه)(١٦٧) أي انك اذا اتبعت سمت كلام العرب في الأبنية والاعراب وان لم تسمع ذلك منهم كان كلامك من كلامهم لأنه جاء على سمته ، فهذا هو القياس ، وفائدته أنك تحمل ما لم تسمعه عنهم على ما سمعته (وذلك كأن يحتاج الى تكسير الرجز الذي هو العذاب فكنت قائلا أرجاز قياسا على أحمال وان لم تسمع أرجازاً) (١٦٨) وفي هذا ما فيه من

تخفيف الكلفة عن الناس في تعلم العربية (ومنه ما وجـدوه يتدارك بالقياس وتخف الكلفة في علمه عن النـاس فقننـوه وفصلوه) وقد نقل عن ابي علي ان هذه القوانين انما وضعت (ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها ، ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح)(١٦٩) .

وهذا القصد من القياس يؤيد ما ذهب ليه د . ابراهيم أنيس من أن القياس عند علماء القرنين الاول والثاني كان يراد به وضع الاحكام العامة ، أما في القرن الرابع فكان يراد بـه هذا مع معنى جديد هو امكان استنباط شيء جديد في اللغة لم يسمع من العرب قياسا على ما تكلمت به العرب (١٧٠) .

وقد وجدنا ابن جني مولعا بالقياس . كثير الأخذ به . ناصحا بتأمله:(ولا تسرع الى اعطاء اليد بانتقاض بابه والقياسَ القيـاس) (١٧١) ، وهـو على شـدة ولعـه بالقياس نـراه يؤكد حقيقة لغوية مهمة : هي ان اللغة لا يمكن أن تؤخذ كلها بالقياس (ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا ، لكن ما أمكن ذلك فيه قلنا به ونبهنا عليه) (١٧٢) ، والقياس يكون على ما كثر استعماله (فحمله على الاكثر هو القياس) (١٧٣) ، وهذه الكثرة هي الحكم اذا ورد عن العرب سماعان مختلفان ، مع تصحيح ما ورد عن العرب وكان أقل من غيره (وذلك أن « مأروطاً » أفشى في اللغـــة من «مرطيّ» وكلاهما جائز ، والاول الاختيار) (١٧٤) ، فاذا تعارض السماع والقياس فقد نص ابن جني على انه يلتزم المسموع ، ويترك

القياس في ذلك (لأن السماع يبطل القياس) [175] ، الا انه مع ذلك لم يجعل القياس المخالف للمسموع عديم الفائدة ، انما جعله ذخيرة للمحدثين اذا احتاج اليه أحدهم في شعر ، أو سجع ، اذ هو من كلام العرب ما دام على قياس كلامهم : (فان صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت ، كنت على ما أجمعوا عليه البتة ، واعددت ما كان قياسك اداك اليه لشاعر مولد ، او لساجع ، او لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم ، بذلك وصى أبو الحسن) [176] .

آثـاره :

قلنا ان ابن جني عوض من قلة من أخذ العلم عنه من المتتلمذين على يديه بانتشار كتبه وعموم فائدتها ، وقد ترك للاجيال بعده من مصنفاته ما بلغ سبعة وستين[177] ، بين وجيز ووسيط وبسيط ، منها ما هو مطبوع ، ومنها ما ذكر المفهرسون مكان وجوده ، منها ما لانجد له ذكراً في فهارس المخطوطات ، ولا يعني هذا فقدان القسم الثالث فمازالت المكتبات الشخصية تزخر بنوادر المخطوطات ، ومن أشهر كتبه المطبوعة :

١ ـ التصريف الملوكي · حققه محمد سعيد النعسان ـ دمشق ١٣٩٠هـ ·

٢ ـ تفسير أرجوزة ابي نواس · حققه محمد بهجة الاثري ـ دمشق ١٣٨٦هـ ·

٣ ـ التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله ابو سعيد السكري · حققه د · أحمد ناجي القيسي و د ·

أحمد مطلوب و د · خديجة الحديثي ـ بغداد ١٣٨١هـ ·

٤ ـ التنبيه علي شرح مشكلات الحماسة · حققه عبدالمحسن خلوصي (مطبوع بالآلة الكاتبة) ١٩٧٤ ، رسالة ماجستير) ·

٥ ـ الخصائص · حققه محمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ ·

٦ ـ سر صناعة الاعراب · حقق الجزء الاول منه لجنة من الاساتذة مصطفى السقا ، ومحمد الزفزاف ، وابراهيم مصطفى ، وعبدالله أمين ـ القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م ثم حقق الجزء الثاني منه أحمد رشيد سعيد محمود (مطبوع بالآلة الكاتبة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م رسالة ماجستير في الأزهر)، ثم حقق الكتاب كاملا د · حسن هنداوي ـ دمشق ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ·

٧ ـ العروض · حققه د · حسن شاذلي فرهود ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ·

٨ ـ عقود الهمز ، طبعت مع رسالتين أخريين له أيضا هما : المقتضب من كلام العرب ، وما يحتاج اليه الكاتب ، نشرها وجيه فارس الكيلاني بعنوان : ثلاث رسائل للامام أبي الفتح عثمان بن جني ـ مصر ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م ·

٩ ـ علل التثنية ـ رسالة حققها عبدالقادر المهيري في

حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ١٩٦٥م وذكر في المقدمة أن نص علل التثنية يكاد يوجد بحذافيره في سر الصناعة ·

١٠ــ الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي حققه د · محسن غياض ، بغداد ١٩٧٣م ·

١١ــ الفسر (ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح ابن جني) حققه د · صفاء خلوصي بغداد ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م ·

١٢ــ اللمع في العربية · حققه حامد المؤمن ــ بيروت ١٩٨٥م ·

١٣ــ المبهج في شرح اسماء شعراء الحماسة ــ دمشق ١٣٤٨هـ ·

١٤ــ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها · حقق الجزء الاول الاستاذ علي النجدي ناصف و د · عبدالحليم النجار و د · عبدالفتاح اسماعيل ــ القاهرة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م وحقق الجزء الثاني الاستاذ علي النجدي ناصف و د · عبدالفتاح اسماعيل ، القاهرة ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م ·

١٥ــ مختصر القوافي حققه د · حسن شاذلي فرهود ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م ·

١٦ــ المنصف شرح تصريف المازني حققه ابراهيم مصطفى وعبدالله امين ــ القاهرة ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٤م ·

هوامش الفصل الاول

(١) هذا ما رجحه د٠ فاضل السامرائي في : ابن جني النحوي ص٤٠ ، وهو الذي ذهب اليه الاستاذ محمدعلي النجار في مقدمة الخصائص ١/٩ حيث جعل ولادته في سنة ٣٢٢هـ او سنة ٣٢١هـ ٠

(٢) أحسن التقاسيم ص١٣٨ ٠

(٣) أصالة الحضارة العربية ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ ٠

(٤) نفسه ص ٤٢٨

(٥) نفسه ص ٤٥٤ ٠

(٦) نفسه ص٦٥ ٠

(٧) نزهة الالباء ص ٢٢٩ ، وفيات الاعيان ٢/٤١٠ ٠

(٨) نزهة الالباء ص٢١٦ ٠

(٩) روضات الجنات ص ٤٤٦ ٠

(١٠) ابن جني النحوي ص٢٦ ٠

(١١) معجم الادباء ٥/١٩ ٠

(١٢) الاعلام ١/١٩٣ ، وانظر معجم الادباء ٢/٦ ٠

(١٣) نفسه ١/٣١٣ ، وانظر معجم الادباء ٢/٢٦٦ ٠

(١٤) نفسه / ٣١٦ ، وانظر معجم الادباء ٢/٢٧٣ ٠

(١٥) نفسه ٢/١٨٥ ، وانظر معجم الادباء ٣/٥٤ ·
(١٦) نفسه ٢/١٩٥ ، وانظر معجم الادباء ٣/٨٤ ·
(١٧) نفسه ٢/١٩٦ ، وانظر معجم الادباء ٣/١٢٦ ·
(١٨) نفسه ٢/١٩٦ ، وانظر معجم الادباء ٣/١٣٥ ·
(١٩) نفسه ٤/٣١٧ ، وانظر معجم الادباء ٥/٢٨٠ ·
(٢٠) نفسه ٤/٣٢٦ ، وانظر معجم الادباء ١/٣٨٠ ·
(٢١) نفسه ٥/٣١١ ، وانظر معجم الادباء ٦/٢٩٨ ·
(٢٢) نفسه ٦/٨٢ ، وانظر معجم الادباء ٦/٥٠١ وما بعدها حيث اورد جزءاً من الرسالة المذكورة ·
(٢٣) نفسه ٦/٣١٩ ، وانظر معجم الادباء ٧/٥٠ ·
(٢٤) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص١٣ ·
(٢٥) نفسه ص١٠ ·
(٢٦) الخصائص ٢/٢٠ ·
(٢٧) نفسه ٢/١٨ ·
(٢٨) الفسر ١/٩٩ ·
(٢٩) المنصف ١/١٦٠ ·
(٣٠) سر الصناعة ١/٢٣٨ ·
(٣١) غاية النهاية ١/٢٠٧ ·
(٣٢) سر الصناعة ١/٢٧٨ ، المنصف ٣/١٧ ·
(٣٣) المنصف ٣/١٠ ·
(٣٤) الخصائص ٢/١٤ ·
(٣٥) نفسه ٢/١٧١ وسر الصناعة ١/٢٥٦ ·
(٣٦) المنصف ٣/٧٨ ·

(٣٧) المحتسب ١/٣٦ .

(٣٨) غاية النهاية ٢/١٢٣ـ١٢٥ .

(٣٩) مقدمة الخصائص ١/١٤ـ١٥ .

(٤٠) الفهرست ص٥٥ .

(٤١) سر الصناعة ١/١٥٨ .

(٤٢) نفسه ١/١٥٢ .

(٤٣) نفسه ١/٢٤٨ .

(٤٤) المنصف ٣/٤٦ .

(٤٥) نفسه ٣/٧٢ ، ٧٩ ، ٨٠ .

(٤٦) الخصائص ٣/٢٩٩ .

(٤٧) نفسه ٣/٣٠٥ .

(٤٨) المحتسب ١/٣٠٤ .

(٤٩) الخصائص ١/٣٨٦ .

(٥٠) نفسه ١/٣٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣/٢٩٨ .

(٥١) نفسه ١/٣١٥ .

(٥٢) سر الصناعة ١/٨٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، الفسر ١/٢٧٤ .

(٥٣) الخصائص ١/٧٥ ، ٣٨٤ ، المحتسب ١/٣٥ ، ٦٤ ، ٢/١٧ .

(٥٤) المنصف ٢/١٠٥ ، ٣/٢٥ ، سرّ الصناعة (الازهـر) ٢/٣٠٣ .

(٥٥) سر الصناعة ١/١٧٧ .

(٥٦) المحتسب ١/٣٦ .

(٥٧) الخصائص ٣/١٣٢ ، الفسر ١/١٥١ ، ٢٢٧ ، ٣٦٩ .

(٥٨) معجم الادباء ٦/٤٦ .

(٥٩) نزهة الالباء ص ٢٤٠ .

(٦٠) بغية الوعاة ص٣٦٠ .

(٦١) هدية العارفين ٢/٥١٩ .

(٦٢) نزهة الالباء ص٢٢٩ ـ ٢٣١ ، انباه الرواة ٢/١٧٥ .

(٦٣) معجم الادباء ٥/٢٩ .

(٦٤) نزهة الالباء ص٢٣٢ .

(٦٥) معجم الادباء ٥/٢٧١ .

(٦٦) نفسه ٥/٢٧٢ ، نزهة الالباء ص٢٣٢ .

(٦٧) نفسه ٥/٢٠٧ .

(٦٨) نفسه ١/٣٩٨ .

(٦٩) تاريخ الادب العربي ـ حنا فاخوري ص٦٦٦ .

(٧٠) أعيان الشيعة ٣٩/٢٠٩ .

(٧١) ديوان الرضي ٢/١٦٦ .

(٧٢) نفسه ٢/٦٣ وقد تبعنا في اختيار الابيات (ابن جني النحوي) ص٢٥ .

(٧٣) معجم الادباء ٥/١٨ ، ٢٥ .

(٧٤) شذرات الذهب ٣/١٤١ .

(٧٥) الخصائص ١/٢٣٩ .

(٧٦) معجم الادباء ٥/١٨ .

(٧٧) الفتح الوهبي ص١٨٢ .

(٧٨) الفسر ١/١٧٣ .

(٧٩) الفتح ص٣٢ .

(٨٠) نفسه ص٤٨ .
(٨١) نفسه ص٩٨ ، ١١٢ .
(٨٢) معجم الادباء ٥/١٨ ، وردد السيوطي هذا القول في بغية الوعاة ٢/١٣٢ .
(٨٣) الفتح ص١٦٦ .
(٨٤) معجم الادباء ٥/١٦ ـ ١٧ .
(٨٥) الخصائص ٢/١٠٨ .
(٨٦) تفسير ارجوزة ابي نواس ص١٩٨ .
(٨٧) المنصف ١/١٢٧ .
(٨٨) سر الصناعة ١/٨٥ .
(٨٩) نفسه ١/١٠١ .
(٩٠) نفسه ١/١٠٣ .
(٩١) نفسه ١/١٢٠ .
(٩٢) نفسه ١/١٣٨ .
(٩٣) المنصف ١/٥٣ .
(٩٤) الخصائص ١/٩١ ، ٩٢ ، والنص الذي يليه من المصدر نفسه .
(٩٥) سر الصناعة . حاشية ١/٨٤ .
(٩٦) نفسه ١/٩٣ .
(٩٧) ابن جني النحوي ص٢٩٠ وانظر أدلة بصريته من ص ٢٤٥ الى ٢٩٠ .
(٩٨) ظاهرة الشذوذ في النحو العربي ص٣٣٧ ، وانظر ما

كتبه د · فاضل السامرائي عن اختلاف العلماء في حقيقة المدرسة البغدادية ص ٢٤٧ من ابن جني النحوي ، وما كتبه د · مهدي المخزومي في انكار المدرسة البغدادية وجعلها كوفية ص٧ و٨٢ من الدرس النحوي في بغداد ·

(٩٩) نفسه ص٣٤٢ ·

(١٠٠) نفسه ص ٣٤٣ وما بعدها ·

(١٠١) التنبيه على شرح مشكلات الحماسة ص ٣٢٢ ·

(١٠٢) نفسه ص ٦٣٣ ·

(١٠٣) المحتسب ١/١٦٧ ·

(١٠٤) نفسه ١/٢٣٤ ·

(١٠٥) سر الصناعة (الازهر) ٢/٣٠٧ ·

(١٠٦) أرجوزة ص ٦٩ ·

(١٠٧) سر الصناعة (الازهر) ٢/١٢ ، ١٣ ·

(١٠٨) أرجوزة ص ٢٥ ·

(١٠٩) التنبيه ص٢٢٦ ·

(١١٠) مهذب الاغاني ١/٧ ·

(١١١) المنصف ٢/٣١٠ ·

(١١٢) الخصائص ٣/٢٨٨ ·

(١١٣) سر الصناعة (الازهر) ٢/١٠٠ ·

(١١٤) نفسه (الازهر) ٢/١١ ·

(١١٥) نفسه ١/٢٤٤ ·

(١١٦) الفسر ١/٤٣ ·

(١١٧) المنصف ٣/٧٢ ·
(١١٨) سر الصناعة ١/٤٧ ·
(١١٩) نفسه ١/٨٢ ، المنصف ٣/١١ ·
(١٢٠) نفسه ١/٨٦ ، نفسه ١/٢٩ ·
(١٢١) المنصف ٢/١٨٣ ·
(١٢٢) المحتسب ١/٢٢٤ ·
(١٢٣) سر الصناعة ١/١٨٥ ·
(١٢٤) نفسه ١/٢٠٣ ·
(١٢٥) الخصائص ١/٩٧ ·
(١٢٦) نفسه ٢/٢١٩ ·
(١٢٧) انظر مثلا الخصائص ١/١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٥٣ ·
(١٢٨) انظر بالترتيب : سر الصناعة ١/١٦ ، ١٦ ، ١٩ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ٢٦٦ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، وانظر فيهم وفي غيرهم من العلماء بقية كتب ابن جني المطبوعة المفهرسة في فهارس الاعلام ·
(١٢٩) بحوث في تاريخ السنّة ص ٢٣٠ وما بعدها ·
(١٣٠) المزهر ١/١٥١ ، ٢١١ ·
(١٣١) نفسه ١/٥٨ ·
(١٣٢) تاريخ علوم اللغة العربية ص٩١ ، وانظر في رحلة العلماء : تاريخ آداب العرب ٢/٣٤٤ ، والرواية والاستشهاد باللغة ص٢١ ·
(١٣٣) المزهر ١/٢١١ ، ٢١٢ ·
(١٣٤) الاقتراح ص٢٧ ·

(١٣٥) طرق تنمية الالفاظ ص١١ ، ١٢ وذكر د · محمد عيد في الرواية والاستشهاد ص٢٢٤ ، أواخر القرن الرابع في البادية ، وكذلك قال الرافعي في تاريخ آداب العرب ٢/٣٤٥ ·

(١٣٦) الخصائص ٢/٥ ، ومنه النص الاتي أيضا ·

(١٣٧) نفسه ١/٢٥٠ ·

(١٣٨) المبهج ص٦٧ ·

(١٣٩) الخصائص ١/٧٨ ·

(١٤٠) الخصائص ٢/٤٦٦ وانظر ١/٧٨ ، ٢٤١ ·

(١٤١) نفسه ١/٢٤٩ ، ٢٥٠ ·

(١٤٢) نفسه ١/٧٨ ·

(١٤٣) نفسه ٢/٢٦ ومنه النص الآتي أيضا ·

(١٤٤) قال سيبويه ٢/١٠٨ : (واعلم أن كل ما كان على ثلاثة أحرف ولحقته زائدتان فكان ممدوداً منصرفاً فان تحقيره كتحقير الممدود الذي هو بعدة حروفه مما فيه الهمزة بدلا من نفس الحرف ، وذلك نحو علباء وحرباء ، تقول : عليبيّ وحريبيّ) ·

(١٤٥) الخصائص ١/٣٣٨ ·

(١٤٦) نفسه ١/٣٧١ ·

(١٤٧) نفسه ٢/٤٤ ، ٤٩ ·

(١٤٨) نفسه ٢/٥٠ ·

(١٤٩) نفسه ٢/٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ومنه النص الآتي أيضا ·

(١٥٠) نفسه ٢/١٤٣ .

(١٥١) انظر مثلا الخصائص ٢/٩ ، المحتسب ١/٨٤ ، ١٦٧ ، ٢٣٤ .

(١٥٢) المحتسب ٢/١٦٦ .

(١٥٣) الخزانة ١/٤ .

(١٥٤) المحتسب ١/٣٢ ، ٣٣ .

(١٥٥) الخزانة ١/٤ وذكر الاستاذ طه الراوي أن ابن خروف المتوفى سنة ٦٠٩هـ هو أول من أقدم على الاستشهاد بالحديث وتبعه ابن مالك ، انظر : نظرات في اللغة والنحو ص ٢٠ .

(١٥٦) فهرس شواهد سيبويه ص٥٧ ـ ٥٨ ، وقد وجدت السادس وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (ان الله ينهاكم عن قيل وقال) الكتاب ٢/٣٥ .

(١٥٧) انظر دراسة تفصيلية في الموضوع في : موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث للدكتورة خديجة الحديثي ، والحديث النبوي الشريف واثره في الدراسات اللغوية والنحوية ، للدكتور محمد ضاري حمادي .

(١٥٨) الخصائص ٣/١٦٦ .

(١٥٩) انظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٤٣ ـ ٤٥ .

(١٦٠) انظر : سر الصناعة ١/٢٩ ، ٤٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٧٢ ، ٢٠٢ ، ٢٥٦ .

(١٦١) انظر الخصائص ١/٥ ، ٦ ، ٣٤ ، ٧٤ ، ٢٩٠ .

(١٦٢) الخصائص ١/٧ ، ٣/١٥٢ .

(١٦٣) انظر المنصف ١/١٤ ، ٧٢ ، ١٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٢/٧٧ ، ٧٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٣/٣٠ ، ٣١ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٢، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ .

(١٦٤) المنصف ٢/٢٢٨ ، ٣/٥ ، ١٠٥ .

(١٦٥) انظر المحتسب ١/٤١ ، ٥٧ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٧ ، ٣٢٣ ، ٣٣٣ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٢/٤٦ ، ١٢٨ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ١٩٥ ، ٣٣٥ ، ٣٦٤ .

(١٦٦) المحتسب ١/٤٢ ، ٤٣ ، ٦٠ .

(١٦٧) الاغراب ص ٤٥ .

(١٦٨) الخصائص ٢/٤١ ، ٤٢ والنص الآتي منه أيضا .

(١٦٩) المنصف ١/٢٧٩ .

(١٧٠) انظر : طرق تنمية الالفاظ ص١٥ ، ١٦ .

(١٧١) الخصائص ٢/٢٣٣ .

(١٧٢) نفسه ٢/٤٣ .

(١٧٣) المنصف ٢/٩٥ .

(١٧٤) نفسه ١/٣٨ .

(١٧٥) نفسه ١/٢٧٩ .

(١٧٦) الخصائص ١/١٢٦ .

(١٧٧) انظر : ابن جني النحوي ص٨٤ـ٩٣ ، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٢٠ ـ ٢١ .

الفصل الثاني

ابن جني والعربيـــة

منزلة العربية في نفسه :

درس ابن جني العربية يافعا ، وتضلع منها حتى أحبها حباً ملك عليه احساسه ، وقد صرح بهذا الحب والاعجاب في أكثر من موضع من كتبه ، بل انه كلما ازداد معرفة بهـذه اللغة الكريمة ازداد اعجابا بها وحبا لها ، مما جعله يشير الى مواضع من أسرارها ، ويستنبط جوانب من حكمتها ، ودقـة بنائها ، وتفردها ، حتى جعلته هذه الاسرار يتردد في نسـبة وضع اللغة الى الانسان بوصفها ظاهرة اجتماعية ، وجعل في مقابل ذلك كونها الهاما ، ووحيا من الله تعالى ، مع أنه صرح بأن أكثر أهل النظر على انها تواضع واصطلاح[١] ، فنجـده يقول : (واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعي والخوالج قـويـة التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري ، وذلك أنني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة . والارهاف والرقة . ما يملك عليّ جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوة السحر . فمن ذلك مـا نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم ،

فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه • وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه وأنها وحي •

ثم أقول في ضد هذا ، كما وقع لاصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ـ وان بعد مداه عنا ـ من كان ألطف منا أذهانا ، واسرع خواطر ، وأجرأ جنانا• فاقف بين تين الخلتين حسيرا ، وأكاثرهما فأنكفيء مكثورا • وان خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها . قلنا به ، وبالله التوفيق [٢] • والعربية في نفسه لغة شريفة ، حكيمة ، متقنة الصنعة ، كريمة لطيفة ، أهل لأن يتعجب من مذاهبها الواسعة ، وبديع ما فيها من اسرار (•• ليرى منه غور هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، ويعجب من وسيع مذاهبها ، وبديع ما أمد به واضعها ومبتدئها) (٣) • بل هي لغة لا يكاد يعلم بعدها ولا يحاط بقاصيها : (ومن طريف ما مر بي في هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بُعْدُها ، ولا يحاط بقاصيها)[٤] •

والعربي أهل لحمل هذه اللغة الشريفة ، لما في طبعه من قبول لها ، وما يتمتع به من لطف الحس ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه : (لان الله سبحانه انما هداهم لذلك ، ووقفهم عليه ، لأن في طباعهم قبولا له ، وانطواء على صحة الوضع فيه ، لانهم

مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه في أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه ، لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة ، المنقادة الكريمة ، الا ونفوسهم قابلة لها ، محسة لقوة الصنعة فيها ، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها) (٥) .

فأي حب هذا واي تعظيم للغة ولابنائها .

غيرته على العربية :

هذه العربية الحبيبة الى نفسه ، التي تقدمت أوصافها عنده ، لا تقترب منها اللغة لاعجمية ولا تدانيها ، ولو أدرك الأعاجم (غير العرب) ما في العربية من لطف الصنعة والرقة والدقة لما نوهوا بلغتهم أمام العربية ، فضلا عن القول بتقديم لغتهم عليها ، بل ان الذين تضلعوا من علم العربية وهم من أصل أعجمي ، اذا سئلوا عن حال العربية وحال لغتهم الام كانوا لا يرون امكان تقريب لغتهم من العربية ، بل لظهور البون بينهما لا يكادون يقبلون السؤال في ذلك . وقد عرض ابن جني هذه الافكار على طريقته في استثارة السؤال ، والجواب عنه ، فقال وهو يتحدث عن تعظيم العربي لغته : (والمروي عنهم في شغفهم بلغتهم ، وتعظيمهم لها ، واعتقادهم أجمل الجميل فيها ، أكثر من أن يورد ، او جزء من اجزاء كثيرة منه .

فان قلت : فان العجم أيضا بلغتهم مشغوفون ، ولها مؤثرون ولأن يدخلها شيء من العربي كارهون ، الا ترى أنهم

اذا أورد الشاعر منهم شعرا فيه الفاظ من العربي عيب بـه ، وطعن لاجل ذلك عليه • فقد تساوت حال اللغتين في ذلك • فأية فضيلة للعربية على العجمية ؟ •

قيل : لو أحست العجم بلطف صناعة العرب في هذه اللغة ، وما فيها من الغموض والرقة والدقة ، لاعتـذرت مـن اعترافها بلغتها ، فضلا عن التقديم لها والتنويه بها •

فان قيل : لا ، بل لو عرفت العرب مذاهب العجم فـي حسن لغتها ، وسداد تصرفها ، وعذوبة طرائقها لم تعبـأ بلغتها ، ولا رفعت من رؤوسها باستحسانها وتقديمها •

قيل : قد اعتبرنا ما تقوله ، فوجدنا الامر فيه بصده ، وذلك انّا نسأل علماء العربية ممن أصله عجمي وقـد تدرب بلغته قبل استعرابه ، عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ، لبعده في نفسه ، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه ، سألت غير مرة أبا علي رضي الله عنه عن ذلك ، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيته ، •• وأيضا فان العجم العلماء بلغة العرب ، وان لم يكونوا علماء بلغة العجم ، فان قواهم في العربية تؤيد معرفتهم بالعجمية ، وتؤنسهم بها ، وتزيد في تنبيههم على أحوالها ، لاشتراك العلوم اللغـويـة واشتباكها وتراميها الى الغاية الجامعة لمعانيها • ولم نر أحداً من أشياخنا فيها كأبي حاتم ، وبندار ، وابي علي وفلان وفلان، يسوون بينهما ، ولا يقربون بين حاليهما ، وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال ، لوضوحه عند الكـافة • وانمـا

أوردنا منه هذا القدر احتياطا به ، واستظهارا على مورد لـه عسى أن يورده) (٦) .

ومن غيرته على هذه اللغة الكريمة ، حرصه على القول بعربية بعض ما عده غيره من المعرّب ، كما صنـع فـي لفـظ « المسك » و « الرطل » حيث نص على انهما من المعربات (٧) ، وأثبت ابن جني انهما عربيان بالاشتقاق ، قـال في المسـك : (وكذا تجد أيضا معنى المسك ، وذلك انه (فِعْل) من امسكت الشيء ، كأنه يطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ، ولا يعدل بها صاحبها عنه) (٨) . وعن الرطل قـال : (ومثـل الاول : قولهم غلام رطل وجارية رطلة للينها ، وهو من قولهم : رطّل شعره اذا أطاله فاسترخى . ومنه عندي الرطل الذي يوزن به، وذلك أن الغرض في الاوزان أن تميل أبـدا الى أن يعادلهـا الموزون بها ... فهذا ونحوه من خصائص هذه اللغة الشريفة اللطيفة) (٩).

العربية والاعتقاد :

ان ادامة نظره في العربية ، واستكناه أسرارها ، ولطيف صنعتها ، جعلته يعقد الصلة بين اتقان العربية وصحة العقيدة، بل لقد ذهب الى القول ان الذي يصيبه الانحراف عن العقيدة السليمة ، يأتيه ذلك من جهله بهذه اللغة الشريفـة ، فالجهـل بالعربية عنده سبب من اسباب انحراف عقيدة المرء ، قال في باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينيـة : (اعلم ان هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب ، وأن الانتفاع به ليس

الى غاية ، ولا وراءه نهاية . وذلك ان أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى اليها ، فانما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأحنائها) (١٠) .

وقال : (ولو كان لهم انس بهذه اللغة الشريفة ، او تصرف فيها ، أو مزاولة لها ، لحمتهم السعادة بها ، ما أصارتهم الشقوة اليه ، بالبعد عنها . وسنقول فى هذا ونحوه ما يجب في مثله ، ولذلك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل لحن ، أرشدوا أخاكم فانه قد ضل ، فسمى اللحن ضلالا ، وقال عليه السلام : رحم الله امرأ أصلح من لسانه ، وذلك لما علمه صلى الله عليه وسلم مما يعقب الجهل لذلك من ضد السداد وزيغ الاعتقاد) (١١) .

ووقف ابن جني عند واحد من معاني صيغ الزيادة في (أفعل) في العربية ، وهو معنى (وجود الشيء على صفة ، نحو أحمدته ، بمعنى وجدته محمودا ، أو وجدته مستحقا للحمد مني) (١٢) وذكر أن انسانا لو انفق ستين سنة من عمره في خدمة العربية ولم يحصل الا على اكتشاف هذا المعنى ليصح فهمه لآية من كتاب الله تعالى ، لما كان ذلك كثيرا في حق لغته وعقيدته ، قال : (واذكر يوما قد خطر لي خاطر مما نحن بسبيله ، فقلت لو أقام انسان على خدمة هذا العلم ستين سنة ، حتى لا يحظى منه الا بهذا الموضع لما كان مغبونا فيه ،

ولا منتقص الحظ منه ، ولا السعادة به ، وذلك قول الله عز أسمه « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ولن يخلو ، أغفلنا هنا من أن يكون من باب أفعلت الشيء أي صادفته ، ووافقته كذلك ، كقوله :

وأهيج الخلصاء من ذات البرق

أي صادفها هائجة النبات ، وقوله :

فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

أي صادفه مخلفاً ، وقوله :

أصم دعاء عاذلتي تحجّى بآخرنا وتنسى أوّلينا

أي صادف قوما صمّا ، وقول الآخر :

فأصممت عمراً وأعميته عن الجود والمجد يوم الفخار

أي صادفته أعمى ، وحكى الكسائي دخلت بلدة فأعمرتها، أي وجدتها عامرة ، ودخلت بلد فأخربتها ، أي وجدتها خرابا ، ونحو ذلك · أو يكون ما قاله الخصم : أن معنى أغفلنا قلبه : منعنا ، وصددّنا . نعوذ بالله من ذلك ، فلو كان الامر ما ذهبوا اليه منه لوجب أن يكون العطف عليه بالفاء دون الواو ، وأن يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه · وذلك أنه كأن يكون على هذا الاول علة للثاني ، والثاني مسببا عن الاول ، ومطاوعا له ، كقولك : أعطيته فأخذ ، وسألته فبذل ، لما كان الاخذ مسببا عن العطية ، والبذل مسببا عن السؤال

وهذا من مواضع الفاء لا الواو ، الا ترى أنك انما تقول : جذبته فانجذب ، ولا تقول : وانجذب ، اذا جعلت الثاني مسببا عن الاول ، وتقول : كسرته فانكسر ، واستخبرته فأخبر ، كله بالفاء فمجيء قوله تعالى « واتبع هواه » بالواو ، دليل على أن الثاني ليس مسببا عن الاول ، على ما يعتقده المخالف ، واذا لم يكن عليه ، كان معنى : أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، أي صادفناه غافلا ، على ما مضى ، واذا صودف غافلا ، فقد غفل لا محالة ، فكأنه والله أعلم : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، أي لا تطع من فعل كذا ، وفعل كذا . واذا صح هذا الموضع ثبت به لنا أصل شريف يعرفه من يعرفه . ولولا ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ، ودربة الفكر ، لكان هذا الموضع ونحوه مجوزا عليه غير مأبوه له) (١٣) .

من أسرار العربية :

أحب ابن جني العربية حبا جما كما تقدم ، وصارت تجري في عروقه ، وتملك عليه حواسه ، لما فيها من الحكمة والدقة ، والارهاف والرقة ، كما تقدم ، فصار يرى فيها من الاسرار ما يمكن ان يشكل ظواهر لغوية تكاد العربية تنفرد بها ، او في الاقل هي من الظواهر التي ينبغي ان يقف اللغوي عندها دارسا متأملا ، فمن ذلك مثلا :

نظرية الاشتقاق الاكبر :

تؤكد الدراسة الحديثة ان العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة

اعتباطية[١٤] ، او بعبارة اخرى ليست هناك علاقة طبيعية بين الكاف والتاء والباء (كتب) مثلا ومفهوم الكتابة . لانه لو كانت هناك علاقة بين هذه الاصوات ومعناها لكانت عندنا لغة عالمية واحدة ، فلما تعددت اللغات دل هذا على انعدام العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومعناه ، ولم يبق الا القول بالعلاقة الاتفاقية ، او الاصطلاحية .

هذا الذي يسري على لغات العالم كلها يسري على العربية أيضا ، الا أن ابن جني يرى في هذه اللغة ما يميزها عن بقية لغات الدنيا ، واذا كان ما ذكره قد انفرد به من بين علماء العربية ، ولم يأخذوا به في الاشتقاق لانه ليس مطردا ، ولما فيه من التكلف كما عبر عن ذلك ابن عصفور (١٥) ، فانه من غير شك يعرض ظاهرة لغوية تستدعي الوقوف عندها وتأملها ، في الاقل فى الاصول التي يظهر فيها المعنى الجامع بصورة غير متكلفة .

حقيقة النظرية :

أوردنا المقدمة آنفاً بين يدي بحث النظرية ، كي لا يذهب ظن القارىء الى أن الظاهرة عامة في اللغة العربية ، او انها مما التزمه علماؤها وانما هو شيء قال به ابن جني ، وهو أهل لان يوقف عنده ويتأمل .

تتكون العربية في جمهور الفاظها من ثلاثة أصوات صامتة ، غير الصوائت (أو ان شئت : من ثلاثة حروف غير

الحركات) شأنها في ذلك شأن بقية اللغات الجزرية (السامية) اذ هي جميعا ثلاثية الاصول (١٦) . ويرى ابن جني أن اصوات الأصل الواحد الصامتة (الحروف) يمكن نظريا أن تؤدي الى ستة اصول تستعمل العرب منها ما تستعمل وتهمل ما تهمل ، فالكاف والتاء والباء ، مثلا ، يمكن ان تولد منها : (كتب) ، و (كبت) و (تكب) و (تبك) و (بتك) و(بكت) ، وهذا الجزء من عمله كان الخليل بن أحمد الفراهيدي قد قام به قبله في كتاب (العين) حين قلب الاصول ، وذكر المستعمل منها والمهمل (١٧) ، الا أن الذي جاء به ابن جني زيادة على الاستفادة من طريقة الخليل في التقليب ، هو قوله ان هذه الاصول يختص كل منها بمعناه الذي استعمل فيه ولكنها جميعا تلتقي في معنى عام جامع يضم الاصول الستة ، فالقاف والواو واللام تدل على الخفوف والحركة ، كيف تقلبت والكاف واللام والميم تدل على القوة والشدة(١٨) ، وهكذا على أن لكل أصل معناه الخاص به . هذا تفسيره لما سماه : الاشتقاق الاكبر : (وأما الاشتقاق الاكبر فهو أن تأخذ اصلا من الاصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وان تباعد شيء من ذلك عنه رُدّ بلطف الصنعة والتأويل اليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد . فمن ذلك تقليب (ج ب ر) ، فهي أين وقعت ، للقوة والشدة ، جبرت العظم ، والفقير ، اذا قويتهما وشددت منهما ، والجبر : الملك ، لقوته وتقويته لغيره ، ومنها رجل مجرب ، اذا جرسته الامور ونجذته ، فقويت منته ،

واشتدت شكيمته [جرسته : أحكمته ، نجذته : علمته ، منته : قوته ، شكيمته : نفسه (على سبيل المجاز)] ، ومنه الجراب لانه يحفظ ما فيه ، واذا حفظ الشيء وروعي اشتد وقوي . واذا أغفل وأهمل تساقط ورذي [رذي : ثقل] ، ومنها الأبجر والبجرة ، وهو القوي السرة . ومنه البرج لقوته في نفسه ، وقوة ما يليه به . ومنها رجبت الرجل اذا عظمته وقويت أمره ، ومنه رجب ، لتعظيمهم اياه عن القتال فيه . واذا كرمت النخلة على أهلها فمالت دعموها بالرجبة ، وهو شيء تسند اليه لتقوى به . والراجبة : أحد فصوص الأصابع وهي مقوية لها . ومنها الرباجي وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله ، قال :

وتلقاه رباجيا فخورا

تأويله أنه يعظم نفسه ، ويقوي أمره .

ومن ذلك تراكيب (ق س و) (ق و س) (و ق س) (و س ق) (س و ق) وأهمل (س ق و) ، وجميع ذلك الى القوة و لاجتماع . منها : القسوة وهي شدة القلب واجتماعه ، الا ترى الى قوله :

ياليت شعري ، والمنى لا تنفع   هل أغدون يوما وأمري مجمع

أي قوي مجتمع ، ومنها : القوس ، لشدتها واجتماع طرفيها ، ومنها الوقس لابتداء الجرب ، وذلك لأنه يجمع الجلد ويقحله [يجعله قاحلا: يابسا] ومنها الوسق للحمل، وذلك لاجتماعه وشدته ، ومنه استوسق الامر اي اجتمع « والليل وما وسق » أي جمع ، ومنها السوق وذلك لانه استحثاث وجمع للمسوق بعضه الى بعض ، وعليه قال :

مستوسقات لو يجدن سائقا

فهذا كقوله : مجتمعات لو يجدن جامعا ·· ومن ذلك تقليب (س‌م‌ل) (س‌ل‌م) (م‌س‌ل) (م‌ل‌س) (ل‌م‌س) (ل‌س‌م) والمعنى الجامع لها المشتمل عليها : الاصحاب والملاينة · ومنها الثوب السمل ، وهو الخلق وذلك لأنه ليس عليه من الوبر والزئبر ما على الجديد ، فاليد اذا مرت عليه للتّمس لم يستوقفها عنه جدة المنسج ولا خشنة الملمس ·· ومنها السلامة وذلك لأن السليم ليس فيه عيب تقف النفس عليه ولا يعترض عليها به · ومنها المَسْل والمَسَل والمسيل ، كله واحد ،وذلك أن الماء لا يجري الا في مذهب له وامام منقاد به ، ولو صادف حاجزاً لاعتاقه فلم يجد متسربا معه · ومنها الأملس والملساء وذلك أنه لا اعتراض على الناظر فيه والمصفح له ، ومنها اللمس وذلك انه ان عارض اليد شيء حائل بينها وبين الملوس لم يصح هناك لمس ، فانما هو اهواء باليد نحوه ووصول منها اليه لا حاجز ولامانع ، ولابد مع اللمس من امرار اليد وتحريكها على الملموس ولو كان هناك حائل لا ستوقفت به عنه ·· فأما (ل‌س‌م) فمهمل) (١٩) ·

وهو لا يدعي ان ذلك عام في اللغة مطرد فيها ولكنها ظاهرة تستحق أن يتأملها دارس اللغة ، فلو اتفق للقائل بهذا مثال واحد من المثل التي تقلب على ستة أوجه وكان بينها فيه جامع كان حريا بأن يستدر الاعجاب ، على ان ما عرفه ابن جني من أمر هذه الاصول يكاد يقرب مما في الاشتقاق الأصغر كما

قال : (واعلم انّا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة ، كما لا ندعي للاشتقاق الاصغر أنه في جميع اللغة ، بل اذا كان ذلك الذي هو في القسمة سدس هذا أو خمسه متعذرا صعبا ، كان تطبيق هذا واحاطته أصعب مذهبا ، وأعز متلمسا ، بل لو صح من هذا النحو ، وهذه الصنعة المادة الواحدة تتقلب على ضروب التقلب كان غريبا معجبا ، فكيف به وهو يـــكاد يســـاوق الاشتقاق الأصغر ، ويجاريه الى المدى الأبعد .

وقد رسمت لك منه رسما فاحتذه ، وتقيله تحظ به ، وتكثر اعظام هذه اللغة الكريمة من أجله ، نعم ، وتسترفده في بعض الحاجة اليه فيعينك ويأخذ بيديك) (٢٠) .

وقد ادرك ابن جني ان ما جاء به لا يكون في كل لفظ او في كل أصل كما تقدم . وادرك كذلك ان ما ينقاد منه قـد تمس الحاجة فيه الى انعام النظر والتفكر ومحاولة الكشف عن المعنى الجامع بين الفاظ الاصل الواحد (على ان هذا وان لم يطرد وينقد في كل اصل فالعذر على كل حال فيه أبين منـه في الاصل الواحد من غير تقليب شيء من حروفه ، فاذا جاز ان يخرج بعض الاصل الواحد من أن تنظمه قضية الاشتقاق له كان فيما تقلبت أصوله فاؤه وعينه ولامه ، أسهل والمعذرة فيــه أوضح .

وعلى أنك ان انعمت النظر ولاطفته ، وتركت الضجـر وتحاميته ، لم تكد تعدم قرب بعض من بعض ، واذا تأملت ذلك وجدته باذن الله) (٢١) .

على أن هذا الامر الذي صاغه ابن جني في صورته التي هو عليها وأصّل له وأوضح مراميه وأبعاده ، لم يكن من ابتكاره في الاصل ، فالامانة العلمية تدعوه الى ان ينص على انه وان لم يسبقه أحد الى الاستفادة منه او الاستعانة به الا ان شيخه أبا علي كان يعتاده عند الضرورة ، ولعل تصرف شيخه هذا هو الذي أوحى اليه بجمع أمثلة من مادة هذا الموضوع ووضع اسم لها ومن ثم نسبة النظرية لنفسه ، وحق له ذلك : (هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن ابا علي رحمه الله كان يستعين به ، ويخلد اليه ، مع اعواز الاشتقاق الاصغر . لكنه مع هذا لم يسمه ، وانما كان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح اليه ويتعلل به ، وانما هذا التقليب لنا نحن ، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن) (٢٢) .

وفي موضع آخر قال : (فهذه الطرائق التي نحن فيها حزنة المذاهب والتورد عليها وعر المسلك ، ولا يجب مع هذا أن تستنكر ولا تستبعد ، فقد كان أبو علي رحمه الله يراهـا ويأخذ بها . وشاهدته غير مرة اذا أشكل عليه الحرف الفاء أو العين او اللام استعان على علمه ومعرفته بتقليب اصول المثال الذي الحرف فيه) (٢٣) .

ومن الاصول التي أوردها على تقليباتها وذكـر المعنى الجامع لها ، مما يزيد نظريته ايضاحا (قول) و (كلم) وهذا شيء من كلامه في ذلك : (هذا باب القول على الفصـل بـين الكلام والقول ، ولنقدم أمام القول على فرق بينهما طرفا من

ذكر أحوال تصاريفهما ، واشتقاقهما ، مع تقلب حروفهما ، فان هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق ، ويعلوه الى ما فوقه ، وستراه طريقا غريبا ، ومسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا . فأقول : ان معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه ، انما هو للخفوف والحركة ، وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها ، لم يهمل شيء منها . وهي (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) و(و ل ق) (ل ق و) (ل و ق) .

الاصل الاول : (ق و ل) وهو القول . وذلك ان الفم واللسان يخفان له ، ويقلقان ويمذلان به . وهو بضد السكوت، الذي هو داعية الى السكون .

الاصل الثاني : (قال) منه القِلْو : حمار الوحش ، وذلك لخفتّه واسراعه ... ومنه قولهم : قلوت البسر والسويق فهما مقلوان ، وذلك لان الشيء اذا قلي جف وخف وكان أسرع الى الحركة والطف .

الثالث : (و ق ل) منه الوقل للوعل ، وذلك لحركته ، وقالوا : توقل في الجبل اذا صعد فيه ، وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

الرابع : (و ل ق) قالوا ولق يلق اذا أسرع ، قال :

جاءت به عنس من الشام تلق

أي تخف وتسرع . وقرىء : اذ" تلقونه بألسنتكم) أي تخفّون وتسرعون .

الخامس : (ل و ق) جاء في الحديث : (لا آكل من الطعام

الا ما لوق لي) (٢٤)، أي ما خدم واعملت اليد في تحريكه ..
ومنه اللوقة للزبدة وذلك لخفتها واسراع حركتها وانها ليست
لها مسكة الجبن وثقل المصل ونحوهما .

السادس : (ل ق و) منه اللقوة للعقاب ، قيل لها ذلك
لخفتها وسرعة طيرانها .

واما (ك ل م) فهذه أيضا حالها ، وذلك أنها حيث تقلبت
فمعناها الدلالة على القوة والشدة ، والمستعمل منها اصول
خمسة هي (ك ل م) (ك م ل) (ل ك م) (م ك ل) (م ل ك) واهملت منه
(ل م ك) فلم تأت في ثبت .

فمن ذلك الأصل الاول : (ك ل م) منه الكلم للجرح ، وذلك
للشدة لتي فيه .. وقالوا : الكلام : ما غلظ من الارض ، وذلك
لشدته وقوته . ومنه الكلام ، وذلك أنه سبب لكل شر وشدة
في أكثر الامر .

الثاني : (ك م ل) من ذلك كمل الشيء وكمُل وكمِل فهو
كامل وكميل ، وعليه بقية تصرفه ، والتقاؤهما أن الشيء اذا تم
وكمل كان حينئذ أقوى وأشد منه اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : (ل ك م) منه اللكم اذا وجأت الرجل ونحوه ،
ولاشك في شده ما هذه سبيله .

الرابع : (م ك ل) منه بئر مكول اذا قل ماؤها ...
والتقاؤهما أن موضوعة الأمر على جمتها بالماء ، فاذا قل ماؤها ،
كره موردها ، وجفا جانبها ، وتلك شدة ظاهرة .

الخامس : (م‌ل‌ك) من ذلك ملكت العجين اذا أنعمت عجنه فأشتد وقوي ، ومنه مِلك الانسان ، الا تراهم يقولون : قـد اشتملت عليه يدي ، وذلك قوة وقدرة من المالك على مِلكه . ومنه المُلك لما يعطي صاحبه من القوة والغلبة)[٢٥] .

ونحن على ما أوردناه من عدم اطراد هذه الظاهرة ، لو أردنا أن نورد لها شواهد من عندنا لما كان الامر صعبا . فقد أورد أستاذنا كمـال ابراهيـم في عمـدة الصـرف تقليبـات (ع‌ب‌ر) فقال : (وتفيد في تقاليبها العبور والانتقال ، وتراكيبها تدور على هذا وهي :

١ ـ (ع‌ب‌ر) ومنه العبارة لانها تنقل ما في ذهن المتكلم الى السامع ، والعبرة لانتقالها من العين الى الخارج ، والمعبر ، لأنه ينتقل بوساطته الى الجهة الاخرى .

٢ ـ (ع‌ر‌ب) ومنه العرب ، سموا بذلك لكثرة انتقالاتهم . ويقال : فلان أعرب في كلامه ، لأنه الاعراب في الكلام ينقـل السامع العربي الى فهم الكلام بوضوح ، وبدونه يكون مختلطا عليه مجهولا .

٣ ـ (ب‌ر‌ع) ومنه برع في كذا لانه انتقال الى التـكامل والمهارة ، وفلان بارع ، لان فيه زيادة حذق ، ونقل الصنع الى الأجود .

٤ ـ (ب‌ع‌ر) ومنه البعر ، لانتقاله مـن الداخـل الى الخارج .

٥ ـ (ر‌ع‌ب) ومنه الرعب ، للخوف ، لان الانسان ينتقل

فيه من حالة الاطمئنان الى الذعر ·

٦ ـ (ربع) ومنه الربع ، لان الانسان ينتقل اليه وينزل ، وكذا المربع ، للانتقال اليه في الربيع) (٢٦) ·

ومن ذلك ما حذوناه على أمثلة ابن جني في تقليبات (كتب) التي رأينا أنها تدل على الضم والتقريب ، و (علم) التي تدل على الوضوح والظهور ف (كتب) منه الكتابة ، ولا تكون الا بضم الحروف وتقريبها بعضها من بعض · و(كبت) منه كبت بمعنى صرع ، ولا يكون الصرع الا بتقريب المصروع من الارض وضمه اليها · و (بتك) منه بتك أي قطع ، ويكون القطع بتقريب آلة القطع من المقطوع وضمها اليه · أما (تبك) و (تكب) فمهملان ·

وأما (علم) فمن ألفاظها علم ، والعلم ظهور الشيء بعد خفائه ، ومنه العلم للجبل لظهوره ووضوحه · ومن ذلك (عمل) منه عمل كذا أي أظهر شيئا لم يكن من قبل ، ومن ذلك (لمع) منه لمع ، واللمعان ظهور بريق الشيء ، ومن ذلك (لعم) ومنه اللعم وهو اللعاب ، قيل له ذلك لظهوره في الفم بعد أن أفرزته غدده الخاصة التي كان خافيا فيها · ومن ذلك (ملع) ومنه ملع الشاة اذا سلخها ، والسلخ ازالة الجلد واظهار ما كان خافيا تحته من اللحم ، ومنه ملعت الدابة ، اذا أسرعت وحركة المسرع أظهر من حركة غير المسرع التي هي الأصل ، ومن ذلك (معل) ومنه معل الرجل : أي أسرع في سيره وهذا مشابه لملع التي تقدمت في معنى السرعة وهي كما تقدم أظهر

من البطء او عدم السرعة الذي هو الاصل في حركة الانسان في احواله الطبيعية ٠

ومهما قيل في هذا النوع من الاشتقاق فانه لا يعدو ان يكون اقرارا بظاهرة في العربية جديرة بأن يوقف عندها بكل عناية واعجاب ٠ وان هذه الظاهرة ليست مطردة فيها ، بل هي في الفاظ غير قليلة منها ، وانها لو وجدت في اصل واحـــد لكان ذلك حريا بأن يستوقف الدارس ويستدعي اعجـابـه ودهشته ، وهذا كله ذكره ابن جني وهو يتناول فكرة الاشتقاق الاكبر بالشرح والايضاح ، كما تقدم ٠

الصوت والمعنى :

عقدت العرب صلة وثيقة بين صيغة اللفظ والمعنى الذي يؤديه ، حتى كادت معاني الصيغ تطرد في العربية ، وكان من أوائل من نبه على هذه العلاقة سيبويه في الكتاب ، وحذا ابن جني ومن جاء بعد سيبويه حذوه ، فزادوا ووسعوا وأكثروا من الأمثلة والشواهد في هذا الباب ٠

ولاشك في أن عقد الصلة بين الصيغة ومعانيها ، انما هو نوع من عقد الصلة بين الصوت والمعنى ، على أننا لا نقـول بالصلة الطبيعية ، وانما هي هنا صلة وضعية ، ولكنها على أي حال تمثل علاقة قائمة في العربية بين الصوت والمعنى الذي يؤديه اللفظ ، وقد جعل ابن جني ذلك من باب تقارب الحروف لتقارب المعاني ووصف هذا التقارب بأنه باب واسع وبحث فيه بعض معاني الصيغ ، والتضعيف ، وترتيب الحروف بمـــا

يضاهي الاحداث ، وحكاية الأصوات ، والتفريق بين المعاني بحركة الحرف الذي في بنية الكلمة ، والمضارعة في الاصول :

معاني الصيغ والتضعيف :

ذكر سيبويه عدداً من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني)(٢٧) ، منها النزوان ، والنقزان ، والقفزان ، والغليان ، والغثيان ، واللمعان ، والجامع بينها ما تجده فيها من اضطراب وتحرك ، واشار ابن جني الى مذهب سيبويه هذا وقال : (فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الافعال) (٢٨) ، فقد ناسب العرب بالصيغة وحركاتها واقع الفعل الذي يعبرون عنه وما فيه من حركة واضطراب ٠

هذه الاشارة من سيبويه جعلت ابن جني يلتفت الى صيغة اخرى هي صيغة (الفَعَلى) في المصادر والصفات ، حيث وجد انها تأتي للسرعة ، كالبشكى ، والجمزى ، والولقى [يقال : ناقة بشكى : أي سريعة خفيفة ، والجمزى : السير القريب من العدو ، او الوثب ٠ والولقى : عدو فيه شدة ، وناقة ولقى : سريعة] ٠ ومن ذلك أنهم جعلوا المصادر الرباعية المضعفة للمعنى المكرر كالزعزعة ، والقلقلة ، والجرجرة (فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر) ٠

وقد جعلوا أيضاً تكرير العين في الثلاثي دليلا على تكرير الفعل فالاصوات (تابعة للمعاني فمتى قويت قويت ومتى ضعفت ضعفت ، ويكفيك من ذلك قولهم : قطع وقطّع وكسر وكسّر ، زادوا في الصوت لزيادة المعنى واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه) (٢٩) ٠

ترتيب الحرو ف بما يضاهي الاحداث :

ذكر ابن جني أن العرب حين جعلت صيغة (استفعل) للطلب في الغالب كأستسقى واستطعم ، واستوهب ، كانت قد رتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الافعال ، وذلك ن الهمزة والسين والتاء جاءت زوائد قبل الاصل لتعبر عن معنى الطلب ، وطلب الفعل والسعي اليه عادة يتقدمه ثم تقع الاجابة له ، والفعل من غيرها يؤدي معنى الاجابة ، كقولك : طعم (فكما تبعت أفعال الاجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الاصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة)(٣٠) ٠

وقد ظهرت عنايتهم أحيانا في نظم الحروف في الكلمة الواحدة حيث لم يكتفوا باختيار الحروف المناسبة أصواتها للمعاني التي تعبر عنها ، وانما اضافوا اليها العناية بترتيبها ، (وتقديم ما يضاهي اول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره ، وتوسيط ما يضاهي أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود)(٣١) ، ومثل لذلك بقولهم : بحث ، فصوت الباء يشبه صوت الكف حين تخفق على الارض (فالباء للخفقة بما يبحث به على التراب) وصوت الحاء يشبه صوت مخالب الأسد أو براثن الذئب وهي تغور في الارض ، أو هو (كصوت رسوب الحديدة ونحوها اذا ساخت في الارض) والثاء بما فيها من نفث تشبه بث التراب ٠

وقال بعد أن ذكر ما تقدم : (وهذا أمر تراه محسوسا محصلا ، فأي شبهة تبقى بعده) ٠

ومن ذلك أيضا قولهم : شد الحبل ، فالشين المتفشية جاءت أولا ، وهي تشبه بصوت الحبل أول انجذابه قبل أن تحكم عقدته ، ثم جاءت الدال لتعبر عن استحكام العقد بما فيها من ادغام ·

ومن ذلك أيضا قولهم : جر الشيء ، فجعلت الجيم الشديدة أولا لأن في أول الجر مشقة ، ثم جاءت الراء المكررة في نفسها ومع ذلك ضعفت لأن الشيء اذا جر على الارض يهتز ويضطرب في الغالب ، فعبروا عن هذا الاهتزاز والصعود والنزول في الشيء المجرور باختيار حرف الراء لما فيها من تكرير وهي أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها ·

حكاية الأصوات :

ورد عن العرب تسميتهم أشياء بأصواتها فمن ذلك تسميتهم الذباب الخازباز ، والصرد الواق ، والغراب غاق ، والبط سمي بطا حكاية لصوته أيضا ، ومنه تسميتهم صوت مشافر الابل عند شرب الماء بشيب ، وقالوا (صر الجندب فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته ، وقالوا صرصر البازي فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته) (٣٢) ·

بل انهم حكوا صوت الجملة بالفعل وكذلك دعاء الحيوان، فقالوا حاحيت ، وعاعيت ، وهاهيت ، لقولهم حاء ، وعاء ، وهاء ، في دعائهم الحيوان (٣٣) ، وكذلك قالوا : بسملت ، وهيللت ، وحولقت . في حكاية قولهم : بسم الله الرحمن

الرحيم ، ولا اله الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله (كل ذلك واشباهه انما يرجع اشتقاقه الى الاصوات ، والامر أوسع)(٣٤) .

حركة الحرف في البنية :

قد تفرق العرب بين المعنيين بتغيير حركة الحرف في بنية الكلمة ، ويختارون صوت الحركة الأقوى للمعنى الأقوى. والصوت الأضعف للمعنى الأضعف . فمن ذلك انهم وضعوا الذال واللام المشددة للتعبير عن وصف في الدابة ، ووصف في الانسان ، فكسروا الذال للدابة اذا أرادوا ضد الصعوبة فقالوا:ذِلّ ، وضموا الذال للانسان اذا أرادوا ضد العز فقالوا: ذُل ، ولاشك في أن الذي ينال الانسان من الذل أكبر خطراً مما ينال الدابة فكان أن (اختاروا الضمة لقوتها للانسان والكسرة لضعفها للدابة)(٣٥) .

ومن ذلك انهم يقولون في الشيء الحلو : حلا في فمي ، يحلو . وحلي في عيني . فجعلوا بناء فعَل لما يذاق بحاسة الذوق كي تظهر الواو ، وهي قوية ، وبناء فعل بالكسر لما كان لغير تلك الحاسة كي تظهر الياء ، وهي أخف واضعف من الواو (٣٦) .

ومن ذلك قولهم : عندي جُمام المكوك دقيقا ، وجِمام القدح ماءً ، الاولى بالضم لأن الدقيق يمكن أن يعلو على سطح الاناء ، وجعلوا الكسرة للثانية لأن الماء لا يعلو على سطح الاناء

(فجعلوا الضمة لقوتها فيما يكثر حجمه ، والكسرة لضعفها فيما يقل بل يعدم ارتفاعه) ٠

المضارعة في الاصول :

قد يتقارب المعنيان فتتقارب الحروف لذلك ويكون الصوت واحداً في حرفين ويختلف في الثالث لغرض يتطلبه المعنى ، وقد يتفق الأصلان في حرف واحد ويختلفان في حرفين بما يناسب المعنى المراد ، وقد يختلف الاصلان في الحروف الثلاثة ، ويكون هذا الاختلاف أيضا أختلافا مقصوداً تتناسب فيه حروف كل أصل مع المعنى الذي يراد من الفاظها أن تؤديه ٠ وقد أربى ما حصيته من الاصول التي أوردها ابن جني في هذا التقارب على التسعين(٣٧) اتفقت كلها في كون الحرفين المختلفين المتقابلين في الأصلين من مخرج واحد أو من مخرجين متقاربين ٠ ولم يلزم الاختلاف موضعا واحداً في الأصل ، فقد تختلف الفاء مع الفاء ، او العين مع العين ، أو اللام مع اللام ، وقد يتفق الاصلان في اللام ويختلفان في الفاء والعين ، او يتفقان في العين ويختلفان في الفاء واللام ، او يتفقان في الفاء ويختلفان في العين واللام ، وقد يعم الخلاف الفاء والعين واللام في الاصلين ٠

وقبل ان نمضي في تفصيل هذا الموضوع نرى ان نقف عند وصف (الأقوى) والمراد به ، لأنه سوف يتردد فيما يجيء من نماذج ٠ فقد ذكر د ٠ ابراهيم أنيس أن ابن جني لم يكن واضحا حين استعمل لفظ الحرف الاقوى ، ومضى على (ان

التعبير بالاقوى في كلام ابن جني غامض لا مفهوم له عند علماء الأصوات (٣٨) ، وقد تتبع النماذج التي أوردها ابن جني ، وحاول ان يجد تفسيرا للفظ الاقوى لا ينتقض بنموذج آخر عنده فلم يوفق . وانتهى الى التصريح بأن مراد ابن جني بالحرف الأقوى (غامض لا نستطيع تفسيره في ضوء القوانين الصوتية الحديثة) .

وقد ذهبت أتلمس ما يريده بالحرف الأقوى مستفيدا مما طرحه د . ابراهيم أنيس في ذلك ، فظهر لي انه لا يريد بلفظ الحرف الأقوى صفة مطلقة فيه تصح في كل موضع ، وانما يكون الحرف أقوى من الثاني بصفة من الصفات في موضع ، ويكون غيره أقوى في موضع آخر بصفة أخرى ، ففي الموضع الذي وقف عنده د . ابراهيم أنيس ذكر ابن جني هذه الكلمات : أهل وأحد وأخ وعهد ، وكذلك أرل ووتد وولد ، واشار الى ان الهمزة أقوى من كل من الهاء والحاء والخاء ، وان العين أقوى من الهاء ، وان الراء أقوى من اللام ، وان التاء والطاء أقوى من الدال ، ولم يعلل القوة الا في الراء وفي الطاء والتاء ، ومع ذلك لم يكن التعليل واحدا . فالراء أقوى من اللام لان (القطع عليها أقوى من القطع على اللام)(٣٩) ، واللام ضعفت لما فيها من غنة ، والتاء والطاء أقوى من الدال لأن جرس الصوت بهما عند الوقف (أقوى منه واظهر عند الوقف على الدال) فالقوة اذن نسبية عنده ، وقد وجدته يفسرها أحيانا بحصر الصوت الذي في الحرف (٤٠) ، واحيانا بالاستعلاء الذي فيه (٤١) ، وأحيانا بانه حرف صلب(٤٢) ، ويكون الحرف

الثاني يحمل الصفة المعاكسة . وبهذا نكون قد وقفنا على معنى القوة في مصطلح ابن جني .

الاختلاف في حرف واحد :

الهمزة أخت الهاء ، فكلاهما من الحلق ، وقد قالت العرب أزّ الشيء وهزه ، قال تعالى : (ألم تر انّا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) والمعنى أنها تزعجهم وتقلقهم فهو في معنى (تهزهم هزا والهمزة أخت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء) (٤٣) ، والمعنى الذي يؤديه الأز أعظم في النفوس من الهز ، لأن الأخير قد يتناول ما لاقيمة له كالجذع وساق الشجرة .

ومن ذلك أيضا الخضم والقضم ، فقد جعل القضم لكل يابس ، وجعل الخضم لكل رطب ، وبين ما كان رطبا وما كان يابسا (ما بين الخاء والقاف من الرخاوة والصلابة)(٤٤) وعلل هذا الاختيار بأنه كان (حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الاحداث) (٤٥) .

ومما اختلفت فيه الاصول في الفاء أيضا : التهكم والتحكم ، وفي معنى الثاني قوة على الأول فاعطي الحرف الأقوى وذلك (أن الحاء أحصر للصوت من الهاء) (٤٦) .

ومن اختلاف الحرف الواحد في الأصلين ، اختلاف العين فيهما كقولهم : القصم والقسم ، والصاد أقوى من السين ،

فجعلت للمعنى الأقوى،لأن القصم(يكون معه الدق.وقد يقسم بين الشيئين فلا ينكأ أحدهما) (٤٧) . فخصت الصاد بالمعنى الأقوى والسين بالمعنى الأضعف .

ومن ذلك قولهم : قطع وقدع ، والقدع قطع الانسان عن فعله (والطاء أصفى من الدال . والقطع بالسيف ونحوه أصفى ضربا وانصع فعلا من القدع الذي انما هو كلام ، وبين الطاء والدال ما بين الفعل والقول)(٤٨) .

ومما اختلفت فيه اللام في الأصلين قولهم : قبض وقبص ، والقبض يكون باليد كلها ، والقبص يكون بأطراف الأصابع ، وقد جعلت الضاد للاكثر (لتفشيها واستطالتها) والصاد للأقل (لصفائها وانحصار مخرجها وضيق محلها)(٤٩) .

ومنه قولهم : النضخ والنضح ، للماء ولغيره ، والنضخ بالخاء أقوى من النضح بالحاء ، قال تعالى : (فيهما عينان نضاختان) فجعلت (الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه) (٥٠) .

ومن ذلك أيضا وقد اختلف الأصلان في الفاء واللام قولهم : الجدل أو المجادلة . وأصل معناه في الكلام القوة لانه من (جدل) ، ويقرب منه في اللفظ وصف الظبي بأنه شادن (أي قد قوى واشتد . والشين أخت الجيم ، والنون اخت اللام) (٥١) وهذا من (شدن) وذلك من (جدل) ومنه وقد

اختلف الاصلان في العين واللام قولهم : جلف للقشر ، وقالوا : جرم للقطع (وهما متقاربان لفظا متقاربان معنى) والأول من (جلف) والثاني من (جرم) واللام اخت الراء ، والفاء اخت الميم .

ومما اختلف فيه الاصلان في الحروف الثلاثة الفاء والعين واللام قولهم : الغدر والختل (والمعنيان متقاربان واللفظان متراسلان) والأول من (غ د ر) والثاني من (ختل) والخاء اخت الغين ، والتاء اخت الدال ، واللام اخت الراء .

ومنه قولهم : عطوت الشيء بمعنى تناولته ، وقولهم : أتيت عليه ، أي ملكته واشتملت عليه ، والاول من (عطو) والثاني من (أتي) والعين أخت الهمزة ، والطاء اخت التاء والواو اخت الياء (٥٢) .

الفاء وحروف الذلاقة والنطع :

ومما جعله متصلا بباب المضارعة في الاصول ووصفه بأنه من طريف ما مر به ، الفاء اذا ثلثت أي حرفين من حروف الذلاقة ، والنطع ، في التقديم والتأخير [حروف الذلاقة هي الراء واللام والنون وحروف النطع هي الطاء والدال والتاء (٥٣)] قال : (ومن طريف ما مر بي فى هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها ، ولا يحاط بقاصيها ، ازدحام الدال والتاء والطاء . والراء واللام والنون ، اذا مازجتهن الفاء ، على التقديم والتأخير ، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف

ونحوهما) (٥٤) والاصول التي تتحصل من ذلك تسعة أصول اذا قلبت على وجوهها كانت أربعة وخمسين . وقد ذكر ابـن جني أمثلة تسعة للاصول التسعة مع بعض التقليبات لبعضها ، نكتفي بايراد مثال واحد لكل أصل من غير تقليب فمن ذلـك الطاء مع أحد حروف الذلاقة والفاء : (طلف) الشيء الطليف الذي ليس له عصمة الثمين ، (طرف) الطرف ، لأنه أضعف من الوسط ، (طنف) الطنف لما برز خارج البناء ، وهو اضعف مما استند على أساس ، ومن ذلك التاء مع أحد أحـرف الذلاقـة والفاء (تلف) ، ومنه قولهم لشيء ، تالف ، (ترف) ، منـه الترفة لأنه لىا اللين والضعف ، (تنف) ، منه التنوفة للفلاة وهي مهلكة . ومن ذلك الدال مع احد أحرف الذلاقـة والفـاء (دلف) منه قولهم للشيخ الضعيف : دالف ،(فرد) ، منـــه الفرد ، والمنفرد ضعيف ، (دنف) منه الدنف للمريض .

والسير على منهج ابن جني في هذا يجعلنا نقـول : اذا ثلثت الفاء حرفين من حروف الذلاقة فالمعنى أيضاً يكون للوهن والضعف ، فمن ذلك (نفر) ومنه الغزال النافر ، ولولا ضعفه ما فر ، (رفل) ومنه الترفيل وهي الزيادة ، ومازاد على الأصل لم تكن له قوته ، و(نفل) ومنه النافلة ، وهي ما زاد على الغرض وليس لها قوته ووجوبه .

ومما يندرج فيما نحن فيه كلامه على سلب المعنى الثابت من اللفظ بتضعيفه أو بزيادة حرف عليه ، فمرض مثلا لاثبات معنى المرض للمسند اليه الفعل ، فاذا ضعفت العين فقلت مرض كان المعنى العمل على ازالة المرض او سلبه ، ومنه قولهم : شكا

يشكو ، فهو لاثبات الشكوى ، فاذا قلت أشكيت الرجل ، كان المعنى أزلت عنه ما يشكو منه ، على أن العرب قد استعملت أفعالا وضعتها ابتداء للسلب لا للاثبات ، كما في لفظ عجم وتصريفاته .

والكلام على معنى الاثبات والسلب في كلام العرب اشار ابن جني الى انه مما سبق أن نبه عليه شيخه أبو علي ، وهذا يندرج تحت امانته العلمية ، قال : (باب في السلب ، نبهنا أبو علي رحمه الله من هذا الموضع على ما أذكره وأبسطه لتعجب من حسن الصنعة فيه .

أعلم أن كل فعل أو اسم مأخوذ من الفعل أو فيه معنى الفعل ، فان وضع ذلك في كلامهم على اثبات معناه لاسلبهم اياه . وذلك قولك : قام ، فهذا لاثبات القيام ، وجلس لاثبات الجلوس، وينطلق لاثبات الانطلاق ، ومنطلق ، جميع ذلك وما كان مثله انما هو لاثبات هذه المعاني لا لنفيها . الا ترى أنك اذا اردت نفي شيء منها ألحقته حرف النفي فقلت : ما فعل ، ولم يفعل ، ولن يفعل ، ولا تفعل ، ونحو ذلك .

ثم انهم ، مع هذا قد استعملوا الفاظا من كلامهم من الافعال ومن الاسماء الضامنة لمعانيها ، في سلب تلك المعاني لا اثباتها ، الا ترى أن تصريف (ع ج م) أين وقعت في كلامهم انما هو للابهام وضد البيان . من ذلك العجم لأنهم لا يفصحون .. ومنه عُجمة الرمل لما استبهم منه على سالكيه فلم يتوجّه لهم . ومنه جرح العجماء جُبار ، لأن البهيمة لا تفصح عما في نفسها ،

ومنه قيل لصلاة الظهر والعصر العجماوان لانه لايفصح فيهما بالقراءة وهكذا كله على ما تراه من الاستبهام وضد البيان ٠

ثم انهم قالوا : أعجمت الكتاب ، اذا بينته ، واوضحته فهو اذا لسلب معنى الاستبهام لا اثباته ٠

ومثله تصريف (شكو) فأين وقع ذلك فمعناه اثبات الشكو والشكوى ٠ ثم انهم قالوا أشكيت الرجل اذا زلت له عما يشكوه، فهو اذا لسلب معنى الشكوى لا لاثباته ٠٠ ومنه تصريف (مرض) انها لاثبات معنى المرض نحو مرض يمرض ٠٠ ثم انهم قالوا مرّضت الرجل أي داويته من مرضه حتى أزلته عنه ، او لتزيله عنه ٠

وكذلك تصريف (قذي) انها لاثبات معنى القذى ، منه قذت عينه وقذيت وأقذيتها ، ثم انهم مع هذا يقولون : قذيت عينه اذا أزلت عنها القذى وهذا لسلب القذى لا لاثباته ٠٠ ومن ذلك تصريف (أثم) أين هي وقعت لاثبات معنى الاثم نحو أثم يأثم ٠٠ ثم انهم قالوا : تأثم أي ترك الاثم ، ومثله تحوب أي ترك الحوب ٠

واكثر ما وجدت هذا المعنى من الافعال فيما كان ذا زيادة الا ترى أن أعجم ومرّض وتحوّب وتأثّم ، كل واحد منها ذو زيادة ٠ فكأنه انما أكثر فيما كان ذا زيادة قِبَل أن السلب معنى حادث على اثبات الأصل الذي هو الايجاب ، فلما كان السلب معنى زائداً حادثاً لاق به من الفعل ما كان ذا زيادة ،

من حيث كانت الزيادة حادثة طارئة على الاصل الذي هو الفاء والعين واللام)(٥٥) .

ومما يندرج تحت ما نحن بسبيله الباب الـذي عقـده بعنوان : قوة اللفظ لقوة المعنى ، فصيغة افعوعل أقوى في المعنى من صيغة فعل المجرد ، كقولهم : خشن واخشوشن ، وكذلـك أفتعل أقوى من فعل كما قالوا قدر واقتدر ، ومن ذلـك أيضـا استعمالهم صيغة فعال بضم الفاء وتشديد العين للمبالغة من صيغة فعيل كما قالوا جُمّال مبالغة من جميل ، ومثله العدول عن فعيل الى فعال بضم الفاء من غير تشديد العـين · وذلـك قولهم من طويل طوال ، قال : (هذا فصل من العربية حسن ، منه قولهم خشن واخشوشن ، فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لمـا فيه من تكرير العين وزيادة الواو · وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا اعشوشب ، ومثله حلا واحلولى ، وخلق واخلولق ، وغدن واغدودن ، ومثله باب فعل وافتعل نحو قدر واقتدر ، فأقتدر أقوى من قولهم قدر ، كذلك قال أبو العباس ، وهو محض القياس ، قال الله سبحانه : أخذ عزيز مقتدر ، فمقتدر هنا أوفق من قادر ، من خيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ ، وعليه عندي قول الله عز وجل : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وتأويل ذلك أن كسـب الحسنة بالاضافة الى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر ، وذلك لقوله عز اسمه : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » أفلا ترى أن الحسنة تصغر باضافتها الى جزائها صغر الواحد الى العشرة ، ولمـا كان جزاء

السيئة انما هو بمثلها ، لم تحتقر الى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، ولذلك قال تبارك وتعالى : « تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا » فاذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه الى هذه الغاية البعيدة المترامية عظّم قدرها ، وفخم لفظ العبارة عنها ، فقيل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فزيد في لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة لما ذكرنا . وذاكرت بهذا الموضع بعض أشياخنا من المتكلمين فسر به ، وحسن في نفسه ، ومن ذلك ايضا قولهم : رجل جميل ووضيء ، فاذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : وضاء وجمال ، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه .

وبعد فاذا كانت الالفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به ، وكذلك ان انحرف به عن سمته وهديته ، كان ذلك دليلا على حادث متجدد له ، وأكثر ذلك أن يكون ما حدث له زائداً فيه لا متنقصا منه) (٥٦) .

لهجات العربية والاحتجاج بها :

كانت بين قبائل العرب فوارق لهجية واضحة المعالم بينة ، يمكن أن يلحظها من يتصفح كتب اللغة ، فقد (كانت هناك فروق بين لهجة مكة ولهجات البادية ، وبين هذه الأخيرة بعضها مع بعض) (٥٧) .

ولكن هذا الاختلاف كان يتضاءل بسبب اختلاط العرب ببعضهم ومراعاة بعضهم لغة بعض : (لأن العرب وان كانوا

كثيراً منتشرين ، وخلقاً عظيما في أرض الله ، غير متحجرين ولا متضاغطين ، فانهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة الواحدة في دار واحدة ، فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته) (٥٨) · وقد نص في موضع آخر على أن الخلاف بين اللهجات العربية ليس خلافا عميقا ، انما هو خلاف يسير يتناول الفروع لا الاصول : (فان قلت زعمت أن العرب تجتمع على لغتها فلا تختلف فيها ، وقد نراها ظاهرة الخلاف ، الا ترى الى الخلاف في (ما) الحجازية والتميمية ، والى الحكاية في الاستفهام عن الاعلام في الحجازية وترك ذلك في التميمية الى غير ذلك (٥٩) ، قيل هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا معيج عليه ، وانما هو شيء من الفروع يسير فأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه ، ولا مذهب للطاعن به) ·

وهذا الذي ذكره من أن الاصول وما عليه الجمهور لا خلاف فيه ، يحدد ما يعنيه باللهجات العربية عندما يتحدث عنها ، فهو انما يتحدث عن لهجات القبائل العربية التي كانت قائمة قبيل الاسلام وبعده ، أما اللهجات التي كانت في بعض مناطق اليمن قبل الاسلام بزمن ليس بالقصير مما كان أقرب الى الحبشية منه الى العربية كما ذكر د · طه حسين (٦٠) ، فهو بعيد عما كان يقصده علماء العربية بكلامهم على اللهجات ·

وعلى هذا فان سعة الجزيرة العربية وتنوع أراضيها لم يكونا حائلا دون اتصال العرب ببعضها مؤديا الى ان تفقد اللهجات الاتفاق في الأصول ، وانما كانت هناك أسباب اخرى تقاوم هذه

الحواجز وتسعى لتقريب قبائل العرب من بعضها كالاسواق التجارية والأدبية والحج والغزوات والأسر ، وغير ذلك ، وهذا ما انتهى اليه المحدثون ايضا ، فقد ذكر يوهان فك أنه (لم تكن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة العربية بعيدة الاختلاف من الوجهة اللغوية بحيث لا يمكن التفاهم حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض في السكن والجوار ، اذ أن اغلب الفروق فيما يظهر كانت ترجع الى طبيعة اختلاف الأصوات والقوالب والمفردات) (٦١) . والرأي سبق اليه ابن جني كما رأينا .

الاحتجاج بها :

عقد ابن جني في الخصائص بابا بعنوان : باب اختلاف اللغات وكلها حجة ، وواضح من عنوان الباب انه يمكن ان يحتج بأي لهجة من لهجات العرب ، وكونها مما يحتج به يعني جواز استعمالها ، بل جواز القياس عليها ، وقد نص على ذلك خلال كلامه في هذا الباب (وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء وان كان غير ما جاء به خيراً منه) (٦٢) .

ولو ترك ابن جني كلامه من غير تقييد ، ولو مضى الناس على هذه الفتوى ، لما بقيت لغة أدبية موحدة بين العرب ، ولوجدنا من يقول في سعة الكلام : جاء أباك قياسا على قوله :

ان أباها وأبا أباها

ومن يقول : رأيت الرجلان ، قياسا على قوله :

قد بلغا في المجد غايتاها

ومن يقول : كان زيد قائم ، قياسا على قوله :

اذا مت كان الناس صنفان .

وهكذا ، الا أنه حاول أن يحتاط للأمر بأن فصّل القـول فيه ، فمنع تارة ، وأجاز أخرى ، وذلك :

(أ) أن تكون اللهجتان في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين، وحينئذلك ان تستعمل أي اللهجتين شئت ، ولك أن تختار احداهما على الاخرى لقوة في القياس تعتقدها في التي تختارها ، فأما أن ترد الثانية بالأولى فلا :(اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم ، الا ترى أن لغة التميميين في ترك اعمال «ما» يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين في اعمالها كذلك ، لأن لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ويخلد الى مثله ، وليس لك أن ترد احـدى اللغتـين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها ، لكن غاية مالك في ذلك أن تتخير احداهما فتقويها على اختها وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها وأشد انسا بهـا ، فأمارد احداهما بالاخرى فـلا) (٦٣) .

والحق أن مسألة القياس لا قيمة لها في اختيار اللهجـة ههنا ، كما قرره ابن جني في مواضع عدة ، وان لم يكن كلامه صريحا في ذلك ، انما هذا الذي يفهم من عباراته ، وملاك الامر راجع الى كثرة الاستعمال وقلته ، والى استعمال القرآن الكريم

لهذه اللهجة أو تلك ، فنحن حين نقرأ قوله : (تتخير احداهما فتقويها على أختها وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لهـا) . لا نشك في أن الاختيار في «ما» سيكون للهجة تميم ، حيث نص على أنها أقوى قياسا (وانما كانت التميمية أقوى قياسا من حيث كانت عندهم كهل) (٦٤) . فنحن أمام نص صريح في أن التميمية أقوى في القياس ، وعلى هذا فالمنتظر بنـاء على قاعدته التي ذكرها في الاختيار ان يحكم باختيار التميمية على الحجازية ، الا اننا لا نلبث أن نراه ينص صراحة على اختيـار الحجازية معللا ذلك بكثرة الاستعمال ، مستدلا على تلك الكثرة بنزول القرآن بها ، وكأن القرآن عنده لم ينزل الا باللهجة الكثيرة الاستعمال : (الا أنك اذا استعملت أنت شيئاً من ذلك فالوجه أن تحمله على ماكثر استعماله وهو اللغة الحجازية ، الا ترى أن القرآن بها نزل) .

(ب) ان تكون احدى اللهجتين قليلة الاستعمال ، والثانية شائعة كثيرة الاستعمال ، وحينئذ ينبغي أن تستعمل ما كثر استعماله وتتجاوز ما كان استعماله قليلا (فأما أن تقل احداهما جداً وتكثر الاخرى جداً ، فانك تأخذ بأوسعها رواية ، واقواها قياسا ، الاتراك لا تقول : مررت بك ، ولا المال لك ، قياسا على قول قضاعة : المـال له ، ومررت به ، ولا تقول اكرمتكش ولا اكرمتكس ، قياسا على لغة من قال : مـررت بكش وعجبـت منكس) (٦٥) .

ويبدو أنه لا يريد أن يجعل كثرة الاستعمال وحدها هـي

الحكم ، وانما يضع معها قوة القياس : (أوسعها رواية واقواها قياسا) ولست أرى ضرورة لهذا القيد ، قيد قوة القياس ، فالمثال الذي ذكره لم استطع أن أجد فيه ضعف القياس من كل وجه، وذلك اننا اذا جعلنا القياس على الاسم المفرد كانت اللهجة مخالفة للقياس في بك لأن الباء مكسورة مع المفرد كقولنا بزيد ، وهي موافقة للقياس في لِـه لأن اللام مكسورة مع المفرد كقولنا لِزيد . وكانت اللهجة السائرة موافقة للقياس في وجه ، مخالفة في آخر ، واللهجة الاخرى عكس هذه ، فما الذي يرجح احداهما على الاخرى من حيث القياس ؟ .

اما لهجة من قال : بكش ومنكس ، فانها في الوقت أقوى قياسا من اللهجة السائرة كما يبدو ، ذلك أن من قواعدهم أمن اللبس (٦٦) ، والوقف على المتحرك يكون بالسكون (٦٧) ، فاذا وقفنا على الكاف من مررت بك ، وعجبت منك ، لم يكد يعلم المخاطب أمذكر هو أم مؤنث، فاذا الحقنا بها الشين او السين علم أن المخاطب مؤنث . ومعنى ذلك اننا نتجاوز لهجة بكش ومنكس لا لضعفها في القياس أو لقوة الأخرى فيه ، انما لقلة هذه في الاستعمال وكثرة الأخرى .

(ج) أن يكون استعمال اللهجة في شعر أو سجع وحينئذ لا حرج في استعمال ما ثبت ضعفه لقلة استعماله وليس لأحد أن يعترض على الشاعر او الساجع لاستعماله اللهجة الضعيفة لأن الشعر والسجع مظنة الحاجة الى ذلك للضرورة : (فأما أن يحتاج الى ذلك في شعر أو سجع فانه مقبول غير منعي عليه) (٦٨) ومن ذلك انه لو استعمل ناثر اللهجة الضعيفة

جاز أن يعترض عليه ، الا انه اعتراض من يؤاخذ على اختيار شيء جيد ، وغيره أجود منه : (وأن يتخير ما هو أقوى وأشيع منها ، الا أن انسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين) ٠ وهذا الذي ذكره من أن المتكلم على احدى لهجات العرب لا يكون مخطئا لكلام العرب صحيح ، الا أنه ينبغي أن تفسر الجودة هنا بالكثرة ، والا فان اللهجة لا تكون جيدة لذاتها او غير جيدة ، وانما ما كثر استعماله كان القياس عليه جودة ، وما قل استعماله كان القياس عليه ضعيفا مع وجود الكثير ٠

ولكن أيصح ما قاله من أن (الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء ؟ أما أنا فأرى أن هذا الكلام يمكن أن يقبل في العرب الذين استشهد العلماء بلغتهم ، أي الذين لم يتعلموا العربية في أماكن الدرس ، بل أخذوها من مجتمعهم ، فاذا جاءنا شاهد لأحدهم على خلاف اللغة السائدة السائرة لم نخرجه من العربية ، انما نقول : انه صحيح عربية ولكنه خلاف اللغة التي عليها جمهور أدب العرب ٠ أما الذين يتعلمون العربية تعلما في مواضع الدرس فانهم قد علّموا ولا ريب اللغة السائرة الكثيرة ، فينبغي أن يقيسوا على ذلك ولا يتجاوزوه ، وعلموا الشاذ والقليل فينبغي أن يتحاموه ، وانما عُلموه لكي لا يخطئوا نصا وردهم على خلاف اللغة السائرة لا ليقيسوا عليه ٠ فاذا تكلم أحدهم على اللهجة القليلة نعينا عليه كلامه ، ورددناه ، ولم نقبله ، لأنه متعلم والمتعلم ينبغي أن يصير الى ما شاع استعماله عن العرب ، لا القليل النادر ٠

شـذوذ اللهجات :

ذكر ابن جني أن الكلام فى الاطراد والشذوذ في اللغـة يتناول أربعة أضرب (٦٩) :

الأول : ما كان مطرداً فى الاستعمال مطرداً في القياس ، ووصفه بأنه الغاية المطلوبة ، ومثل له بنحو : قام زيد ٠

الثاني : ما كان مطرداً فى القياس شاذا فى الاستعمال ، ، ومثل له بالماضي من يدع ويذر ، فقد استغنت العرب بترك عن ودع ووذر ٠

الثالث : ما كان مطرداً في الاستعمال شاذا في القياس ، ومثّل له باستصوب واستحوذ ، فالعرب لم تقل فيهما استصاب ولا استحاذ ، وان كان ذلك هو القياس ٠

الرابع : ما كان شاذاً في القياس شاذاً في الاسـتعمال ، ومثل له بقول بعضهم : ثوب مصوون ، ومسك مدووف ، حيث لم يحذف واو مفعول من الأجوف الواوي ، كما هو في القياس وكثرة الاستعمال ٠

وقد ذكر أن الحكم فى ما كان مطرداً في القياس ولكنـه شاذ في الاستعمال ، وهو الضرب الثاني أن يتجنب المتكلم ما تجنبته العرب ، الا ان ذلك لا يدعو الى تجنب ما لم يرد عن العرب أنها حكمت عليه بالترك ، مما كان مشبها لهذا المتروك ٠ وذلك كان تدع الماضي من يذر فلا تقول : وذر ، لأن العرب قد تركت ذلك ، واستغنت عنه بترك ، الا ان هذا لا يدعوك الى ترك الماضي

من يهب حملا له على يذر اذا لم تكن قد سمعت وهب ، لأنه لم يبلغك أن العرب قد تحامت الماضي من يهب كما تحامت الماضي من يذر ، فالشيء اذا كان (شاذاً في السماع مطردا في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك ، وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله)(٧٠) ٠

وبهذا نرى أن اطراد الكلمة في القياس لا يشفع للمتكلم في استعمالها ما دامت العرب قد استغنت بغيرها عنها ٠ فالقياس أبداً وراء الاستعمال ، لا أمامه ، وهو من الأدلة القوية على أن علماءنا كانوا يسيرون وراء كلام العرب الوارد اليهم يستنبطون منه القواعد ٠ ولم يكونوا يقعّدون أولا ثم يبحثون بعد ذلك عن شواهد تؤيد ما أوصلتهم اليه القواعد ٠

وأما الحكم في ماكان مطرداً في الاستعمال شاذاً في القياس وهو الضرب الثالث ، فهو أن يتبع المتكلم ما قالته العرب ، ولكنه لا يقيس عليه غيره (فلابد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه ، لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره) ٠ فشذوذ الشيء في القياس اذن لا يضعف استعماله نفسه اذا كان مطرداً في الاستعمال ، وانما يمنع القياس عليه لأن القياس كما تقدم انما يكون على أكثر اللغة لا أقلها ، واكثر اللغة فيما مثل به يقلب الواو ألفاً بعد نقل حركتها وهي الفتحة الى الساكن الصحيح قبلها نحو : استقام واستعاد والاصل استقوم

واستعود بوزن استفعل،فقولهم:استصوبت الشيء ، واستحوذ عليه ، بالتصحيح ، من القلة بالقياس الى كثرة ما ورد بالاعلال، بحيث لا يكون من الصواب القياس عليه وترك القياس على الكثير في اللغة .

وأما الضرب الرابع ، وهو ما كان شاذاً في الاستعمال شاذاً في القياس ، فحكمه أنه لايجوز أن يقاس عليه ، كالضرب الثالث، فلا يجوز أن نقول : هذا رأي مقوول ، مثلا ، قياسا على قولهم هذا ثوب مصوون .

وقد جعل من الضرب الرابع أيضا ما تنازعه قياسان وهو شاذ في الاستعمال ، وذلك في ما حكاه بعضهم في الأمر من قتل ، حيث قيل اقتل بكسر الهمزة وضم التاء ، فهذا له وجه ضعيف في القياس وذلك أنه جاء بهمزة الطلب مكسورة على الاصل ، ولم يراع كراهية الخروج من الكسر الى الضم اللازم واعتد الساكن حاجزاً بينهما لأنه حرف على كل حال وان كان ساكنا لا حركة فيه ، والوجه القوي في القياس ضم الهمزة لمناسبة ضمة التاء وترك اعتداد الساكن حاجزاً ، وقد وصف قولهم : اقتل ، بكسر الهمزة بأنه (من الشاذ وان كان له وجيه في القياس ، فهو شاذ عن القياس والاستعمال جميعا) (٧١).

هذا هو الاطار العام الذي ذكره لمعنى الشذوذ في اللغة ، وحكم الشاذ في الاستعمال وفي القياس ، وبقيت مسائل أخرى يمكن أن نراها مبثوثة في مواضع أخرى مما كتب ، فمن ذلك : الكلمة المفردة تسمع من العرب لا نظير لها هل تعد شاذة ؟ ومتى

يقبل ما يرد من الالفاظ مخالفا للغة الجمهور وللقياس ، وما علته ؟ وهل ينتقل لسان العربي ويغلط فيكون ذلك مدعاة لاتيانه بما يخالف قياس لغة العرب وللاتيان بلهجة ثالثة تداخلت من لهجته واللهجة التي انتقل لسانه اليها وهل يعد ذلك في الشذوذ ؟ وفيما يلي بيان ذلك :

ما لا نظير له :

لم يحكم ابن جني بشذوذ ما ورد عن العرب ولم يكن له نظير عندهم وقد وجّه ذلك توجيها حسنا وهو يتحدث عن جزئيه لا تعنينا تفصيلاتها (٧٢) . خالف الأخفش فيها مذهب الخليل وسيبويه ، مرجحا مذهبهما على مذهب الأخفش ، مستدلا لهما بأن الشاذ انما يكون شاذاً اذا ورد عن العرب كثير غيره على خلافه ، فأما اذا لم يرد عن العرب ما يخالفه ولا كان له عندهم نظير فلا يجوز ان يعد شاذا (٧٣) .

ما خالف لغة الجمهور :

ذكر انه اذا ورد عن عربي ما يخالف اللغة التي عليها جمهور العرب فانه ينظر في حاله وحال ما سمع منه مخالفا للغة الجمهور ، أما حاله فانه ينظر أهو ممن عرف بفصاحته في غير ذلك الأمر الذي خالف فيه؟ فاذا كان فصيحا في كل ما نقل عنه، وكان ما انفرد به مما يقبله القياس وان كان الاستعمال لم يرد به الا من جهته هو فان الأولى ان يقبل منه ما أورده ولا يتهم بالخروج من الفصاحة في ذلك ويحسن الظن به (٧٤) ، وعلل حسن الظن

بأحد أمرين : الأول : انه من الجائز أن يكون ذلك اللفظ قد وقع اليه من لهجة قديمة بَعُد العهد بها فلم يبق منها أثر معلوم ٠

الثاني : أن يكون شيئا ارتجله ، فقد ذهب ابن جني الى أن الاعرابي يمكن أن يتصرف ويرتجل ما لم يسبقه أحد اليه اذا قويت فصاحته ٠

والقاعدة التي وضعها فيما ورد عن الفصيح غير مخالف للقياس هي : لم نقطع على الفصيح يسمع منه ما يخالف لغة الجمهور بالخطأ) ٠

فان جاء ما خالف الجمهور عن متهم في فصاحته ، او عمن لم يعرف العلماء فصاحته ، ولم يسبق لهم أن وثقوه فيما يجري على لسانه ، فانه يرد حينئذ ولا يقبل منه ٠

ومما يدخل في النظر في حال الفصيح انتقال لسانه من لهجة الى لهجة أخرى ، وقد ذكر أنه ينظر فيما انتقل لسانه اليه فان كان لهجة فصيحة أيضا قبلت منه والا ردت عليه ولم تقبل منه ، ولا يشفع له أنه فصيح في غير تلك اللفظة التي عرفت ببعدها عن الفصاحة ، وينظر اليه فيها كأنه من أهل تلك اللهجة الفاسدة فيما انتقل لسانه اليه : (فان كان انما انتقل من لغته الى اخرى مثلها فصيحة وجب أن يؤخذ بلغته التي انتقل اليها كما يؤخذ بها قبل انتقال لسانه اليها حتى كأنه انما حضر غائب من أهل اللغة التي صار اليها أو نطق ساكت من أهلها ٠ فان كانت اللغة التي انتقل لسانه اليها فاسدة لم يؤخذ بها حتى كأنه لم يزل من أهلها)(٧٥) ٠

هذا بالنظر الى حال من ورد عنه ما خالف لغة الجمهور ، فاما النظر الى ما أورده مخالفا ، فانه ان كان موافقا للقياس قبل منه كما تقدم وان انفرد به ، فأما ان كان ما انفرد بـه مخالفـا للقياس فانه يرد عليه ولا يقبل منه وان كان فصيحا مشهوداً له بالفصاحة ، ذلك لانه حينئذ يكون قد خالف السماع والقياس جميعا (٧٦) ، ولا تكون فصاحته حينئذ شفيعا له في قبول ما خالف السماع والقياس ، ولا يقنع في اللفظ المخالف بـوروده عن الواحد او العدد القليل من العرب الفصحاء ، فان كثر عدد قائليه وهو مع ذلك مخالف للقياس ومخالف لما عليه لغة الجمهور من العرب ، فان ابن جني قد أجاز قبوله ، وفسره بأنه اما ان يكون الذين نطقوا به لم يحكموا قياسه على لغة آبائهم ، واما ان يكون الدارس لم يتبين فيه وجه القياس ، وزاد على ذلك أنـه لا يمنع أن يجد الفساد طريقه الى لسان العربي الفصيح اذا اكثر سماعه لما ليس فصيحا فيجري ذلك في كلامه ، ولم يلبـث ان تدارك هذا الأخير ذاكراً أنه يكاد يكون متعـذر الوقـوع ، لأن العربي الفصيح اذا تحولت به عن لغته التي هو عليها الى أخرى ضعيفة رفضها ولم يعبأ بها) (٧٧) .

ومما يدخل في هذا الباب أيضا ما أطلق عليه لفظ الغلط ويريد به مخالفة القياس بسبب توهم العربي في اللفظة ، مما يجعله داخلا في القياس الخاطيء وتسري عليه أحكامه من حيث كثرة الناطقين به أو قلتهم وذلك واضح من تعليله وتمثيله في في الباب ، قال : (كان أبو علي رحمه الله يرى وجه ذلك ويقول انما دخل هذا في كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونهـــا

ولا قوانين يعتصمون بها ، وانما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد)(٧٨) ، فهم اذن قد يزيغون عن القصد لأن الشيء يستهويهم ، ولم تكن القواعد التيهي القياس معروفة لديهم حتى تعصمهممن الزيغ في الكلام أحيانا ، وقد مثل لذلك بقول الشاعر :

غدا مالك يرمي نسائي كأنما
نسائي لسهمي مالك غرضان
فيارب فاترك لي جهينة أعصراً
فمالك موت بالقضاء دهاني

وذكر أن هذا الرجل الذي مات نسوته الواحدة بعد الاخرى ، لكثرة سماعه كلمة ملك الموت ظن أن (فعل) مثل (فلك) فأخذ منه على مثال (فاعل) فقال : مالك (وحقيقة لفظه غلط) لأن أصل اللفظ من لأك (فعل) وملأك (مَفْعَل) منه، الزمت همزته التخفيف ، فقيل ملك ، فهو بزنة (مفل) ، الا أن هذا الأعرابي قد بنى على ظاهر اللفظ فهو اذن قد أخطأ القياس وتوهم ، وهذا معنى نسبة الغلط اليه ⋅ ومثل ذلك أيضا في التوهم ما جاء عنهم من همز مصائب (وهو غلط منهم) حيث جعلوا مصيبة كصحيفة ، فكما قالوا صحائف وهمزوا قالوا : مصائب بالهمز أيضا ، والحق أن ياء مصيبة ليست زائدة كياء صحيفة حتى يصح همزها ، لكنهم توهموا فى القياس أيضا ⋅

تداخل اللهجات :

ذكر ابن جني في باب تركّب اللغات ، أنه موضع (دعا

أقواما ضعف نظرهم ·· أن جمعوا أشياء على وجه الشذوذ عندهم ، وادعوا أنها موضوعة في أصل اللغة على ما سمعوه بأخرة من أصحابها ·· الا تراهم كيف ذكروا في الشذوذ ما جاء على (فعِل يفعل) نحو نعم ينعم ·· وقالوا أيضا فيما جاء على (فعَل يفعُل) وليس عينه ولا لامه حرفا حلقيا نحو قلى يقلى ·· ومما عدوه شاذاً ما ذكروه من فعُل فهو فاعل نحو طهُر فهو طاهر ··· واعلم أن أكثر ذلك دعامته انما هو لغات تداخلت فتركبت ·· هكذا ينبغي أن يُعتقد ، وهو أشبه بحكمة العرب) (٧٩) ·

وتداخل اللغات وتركبها أمر تجيزه كثرة اللقاء بين العرب واختلاطهم وسماع بعضهم من بعض ، فهم وان كانوا منتشرين على ارض الجزيرة الواسعة الا أنهم يجرون مجرى الجماعة الواحدة في تلاقيهم وتزاورهم (٨٠) ·

وقد ذكر ابن جني أن العرب يختلفون في الاستعداد للأخذ من اللهجات الاخرى غير اللهجة التي هم عليها ، اذ هم في ذلك ثلاثة أقسام : قسم يأخذ ما يسمعه من غير تردد أو ابطاء ، وقسم يقيم على لهجته فلا يؤثر فيه سماعه غيرها من الالفاظ ، وقسم بين هذا وذاك ، حيث يظهر عليه أثر ما سمع اذا طال تكرار لهجة غيره عليه فترى في كلامه بمرور الوقت (٨١) ·

واذا أخذ بعضهم من بعض فانه لا يشترط أن يأخذ منه الصيغة في كل أحوالها المتغيرة ، اذ قد يقتصر الأخذ على صورة من صورها (لأن آخذاً الى لغته لغة غيره قد يجوز أن يقتصر على

بعض اللغة التي أضافها الى لغته دون بعض) (٨٢) . وقد تؤثر كل من اللهجتين في الأخرى على حد سواء بحيث تأخذ هـذه من تلك شيئا ، وتأخذ تلك من هذه شيئا غيره فيؤدي ذلك الى تركب لهجة ثالثة (٨٣) ، وقد يسمع الماضي من قوم ويسـمع المضارع من غيرهم فيؤدي ذلك أيضا الى تركب لهجة ثالثـة ، وذلك كأن يسمع الماضي من لهجة من يقول : مِتّ تمات ، فيحفظ: مِتّ ، ثم يسمع المضارع من لهجة مـن يقول مُتّ تمـوت فيحفظ ، فتكون عندنا مِتّ تموت (٨٤) .

وقد أجاز أن يكون في القبيلة الواحدة صيغتان للفظ واحد فيسمع منهم الماضي من صيغة ، والمضارع من الصيغة الأخرى ، فتتركب لهجة ثالثة ، كأن يكون في القبيلة الواحدة : نعِم ينعَم ونعُم ينعُم فيسمع الماضي من الأولى والمضارع من الثانية فيكون لدينا : نعِم ينعُم (٨٥) .

المقايسة بين اللهجات :

قرر ابن جني كما تقدم أن المتكلم على وفق لهجة من لهجات العرب يكون مصيبا كلام العرب غير مخطيء له وان كانت اللهجة ضعيفة ، الا انه يكون حينئذ قد أخذ بما هو خلاف الأولى ، وهذا الاتجاه للكلام على اللهجات ووصفها بالضعف والقوة أو بالأولى وخلاف الاولى نجده يتردد كثيراً فيما كتب ، ووجدناه يفاضل بين اللهجات ويقايس بينها ، فهذه اللهجة هي القياس ، وتلك ضعيفة في القياس ، وأقيس اللهجتين كذا ، والثانية لها وجه في القياس ، وهكذا .

وقد مر أيضا حد اللغة عنده وانها أصوات يعبر بها كل

قوم عن أغراضهم ، وجمهور علمائنا ومنهم ابن جني كانوا يستعملون كلمة لغة فيما نعبر عنه الان بلفظ لهجة ، فيقولون : لغة تميم ولغة الحجاز ولغة بلحارث ولغة طيء .. الخ ، وسواء أخذنا بعبارة القدماء في اطلاق لفظ اللغة على اللهجة أم أخذنا بما عليه جمهور الكتّاب اليوم من جعل لفظ اللغة للأم كاللغة العربية ، واللهجات لفروعها كاللهجة الحجازية والتميمية ولهجة العراقيين ولهجة أهل الشام ، فاننا نصل الى نتيجة واحدة من حيث النظر الى أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم ، فاللهجة التميمية لغة لانها الاصوات التي يعبر بها التميميون عن اغراضهم ، وهكذا ، واذ كان الامر كذلك ، فعلى أي أساس كان ابن جني يستعمل كلمة الأقيس ، ويقايس بين اللهجات العربية ؟

الذي انتهينا اليه أنه لم يكن يفاضل بين اللهجات بقياس واحد ، وانما كان هناك اكثر من سبب يدعوه الى تقوية لهجة ، او تضعيف اخرى ، فقد يكون السبب أن احدى اللهجتين هي لغة قريش ، أو لقريش ، او للحجاز ، وقد تكون احداهما اكثر استعمالا ، أو قد تكون اكثر اتفاقا مع القواعد العقلية التي استنبطها العلماء من كلام العرب ، وقد يجتمع في احداهما اكثر من سبب .

على انه قد يفضل لهجة على أخرى من غير ذكر لسبب التفضيل . فمن ذلك مثلا كلامه على لفظ (القنية) حيث ذكر أنه يجب على ظاهر لفظها أن تكون من الياء الا أن البصريين يرون أنها من الواو ، والأصل عندهم (قنوة) وقد ابدلت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، ولم يُعتَد النون حاجزا لانه ساكن فهو

حاجز ضعيف (على أن أعلى اللغتين : قنوت) [٨٦] ، ولم يبين لم كانت قنوت أعلى من قنيت ، ومنه أيضا قوله : (ومن ذلك قراءة أبي رجاء يضَل به الذين كفروا • بفتح الياء والضاد ، قال أبو الفتح : هذه لغة ، أعني ضلِلت أضَلّ ، واللغة الفصحى ضلَلت أضِلّ) [٨٧] ، ومنه أيضا : ينحتون ، بفتح الحاء ، قال أبو الفتح : أجود اللغتين نحت ينحت بكسر الحاء ، وفتحها لأجل حرف الحلق الذي فيها كسحَر يسحَر) [٨٨] •

الراجح أنه يريد باعلى اللغتين ، أو أجودهما ، أو الفصحى ، فيما تقدم ، اللغة الاكثر استعمالا ، أو لغة القرآن ، أو الحجازية ، وقد ينضاف الى هذا قوة القياس • فالكلمة الاولى ظاهر أمرها أنها من الياء كما ذكر ، وما دام الفعل قد ورد بالياء في لهجة فحملْه عليها أولى من الاعتلال الذي ذكره ، الا أن الذي قوّى ذلك الاعتلال أن أعلى اللغتين بالواو ، فمن أين جاءها العلو ان لم يكن من كثرة الاستعمال•وكذلك ضلّ يضَلّ ويضِلّ انما كانت يضِلّ اللغة الفصحى لكثرتها وقوتها في القياس ، لأن الكثير في المضعف اللازم ان يكون من الباب الثاني كما هو معلوم • وفي ينحت نراه يعتل للفتح بأنه لأجل حرف الحلق ، مما يدل على أن الكثير في الاستعمال انما هو الكسر •

وقد يصف اللغة بالضعف والقبح لأنها جاءت بأصوات لم تؤلف في القرآن ولا في الشعر ، وهو ان أطلق عليها كلمة لغة الا أن الراجح أنها من تأثر الناطقين بها بمن جاورهم أو خالطهم من غير العرب • ولذا لا نراه يرخص فيها كما فعل

مع بقية اللهجات بقوله ان الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء، بل منع الأخذ بها في القرآن وفي الشعر، قال : (وقد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف وهي فروع غير مستحسنة ، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ، ولا تكاد توجد الا في لغة ضعيفة مرذولة ، غير متقبّلة ، وهي : الكاف التي بين الكاف والجيم ، والجيم التي كالكاف) (٨٩) .

وعلى أية حال فان ما ذكره من تضعيف للهجات او مفاضلة بينها لا يعدو ما ذكرناه آنفا من الكثرة والقلة ، أو لغة القرآن وغيرها ، أو موافقة المقاييس المستنبطة من كلام العرب ومخالفتها ، (وذلك أننا بكلامهم ننطق فينبغي أن يكون على ما استكثروا منه يحمل ، هذا هو قياس مذهبهم وطريق اقتفائهم) (٩٠) وفيما يلي ايراد ذلك :

نقل عن عمر رضي الله عنه أن القرآن نزل بلغة قريش وذلك في رسالته التي بعث بها الى ابن مسعود رضي الله عنه ، وفيها : (ان الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجعله عربيا ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام)(٩١) ، وقد ذكر أن هذا الذي نهى عنه عمر رضي الله عنه جائز وليس خطأ ، لكن الأخذ بما أمر به وهو الاكثر في الاستعمال ، ولغة القرآن ، التي هي لغة قريش هي الفصحى عنده ، ويسميها لغة الحجاز كثيراً ، قال : (واللغة الأولى أكثر وأقيس وهي لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن) (٩٢) ، وقال : (لأن القرآن بهذه اللغة نزل ، ولغته أفصح اللغات) (٩٣) . وقال : (وأعلى اللغتين الحجازية

وبها نزل القرآن) (٩٤) ، ولذا فان الحجازية مفضلة اذا اختلفت مع غيرها اذ هي الفصحى والاكثر في الاستعمال ، يدلك على هذه الفصاحة والكثرة أن القرآن نزل بها (فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله وهو اللغة الحجازية ، الا ترى أن القرآن بها نزل) (٩٥) .

وقد وجدته يعلل الفصاحة في اللفظة بأنها لغة الحجازيين ، من غير أن يذكر أي دليل على الفصاحة سواه ، قال : أما نُشْرا ، فتخفيف نُشُرا في قراءة العامة ، والنُشُر جمع نَشور لأنها تنشر السحاب وتستدرّه ، والتثقيل أفصح لأنه لغة الحجازيين ، والتخفيف في نحو ذلك لتميم) (٩٦) ، وقد يكتفي بالكثرة علة لتفضيل اللهجة من غير اشارة الى نسبها ، ومن ذلك حديثه عن رِدف بالكسرة ورَدف بالفتح حيث ذكر أن (الكسر أفصح وهو أكثر اللغة) (٩٧) .

وقد يجعل الكثرة في اللغة مسببة عن موافقة الأقيسة العقلية المستنبطة من جمهور كلام العرب ، كما فعل في كلامه على لهجات العرب في بناء الأجوف للمفعول ، اذ بعضهم يقول : قيل وخيف وبيع ، باخلاص الكسر من غير اشمام ، وجعل ذلك أقيس وعلله بأن المكسور اذا سكن وكان الحرف الذي قبله مضموما نقلت كسرته الى المضموم فيكسر ، كما قالوا للمرأة : أغزي بكسر الزاي وأصله أغزوي بضم الزاي وكسر الواو مثل اكتبي ، فلما سكنت الواو استثقالا للكسرة عليها نقلت كسرتها الى الزاي المضمومة قبلها فكسرت ، وهكذا قياس هذه الأفعال في البناء للمفعول ، (فلذلك كان قيل وبيع أكثر في اللغة ، وهو

اللغة الجيدة) (٩٨) ، فكأن موافقة القياس عنده هي التي أدت الى هذه الكثرة .

القياس على لغة العرب :

الأصل في اللغة أن تؤخذ سماعا وتنقل من جيل الى جيل، ولكن الفرد الواحد في المجتمع لا يتصور أنه يتفق له أن يسمع كل ما ورد في لغة قومه ، ومن أجل ذلك كان المتكلم يقيس ما لم يسمعه على ما سمعه ويكون كلامه جزءاً من لغة قومه قال : (باب في ان ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب . هذا موضع شريف ، وأكثر الناس يضعف عن احتماله لغموضه ولطفه ، والمنفعة به عامة ، والتساند اليه مقوٌ مجْدٍ ، وقد نص أبو عثمان [المازني] عليه فقال : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، الا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول ، وانما سمعت البعض فقست عليه غيره ، فاذا سمعت : قام زيد ، أجزت ظرف بشْر وكرُم خالد)(٩٩) .

واذا كان قد نسب أصل الباب هنا الى أبي عثمان المازني ، فانه في موضع آخر جعله للنحويين عامة حيث قال : (واعلم أن من قوة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب)(١٠٠) ، بل انه جعل ما أطلق عليه مسائل التمرين في الصرف من كلام العرب أيضا ، وان لم يكن لها معنى ولم تنطق بها العرب ، وذلك كأن تبني من ضرب على مثال جعفر فتقول ضربب ، أو أن تبني من هناه على مثال جِرّدَحْلٍ فتقول : هِنْوَوٌ(١٠١) .(انك لو مررت على قوم

يتلاقون بينهم مسائل أبنية التصريف نحو قولهم في مثال صَمَحْمج من الضرب : ضربرب • ونحو ذلك ، فقال لك قائل : بأي لغة كان هؤلاء يتكلمون لم تجد بدأ من أن تقول : بالعربية • وان كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف ؟ (١٠٢) •

وقد عقد في الجزء الثاني من الخصائص باباً تحت عنوان : باب في اللغة المأخوذة قياسا ، جعله للكلام على القياس على لغة العرب ، وان ما قيس على ما تكلموا به فانه من كلامهم ، على ان اللغة لا تتدارك كلها بالقياس وانما لابد من اعتماد المسموع في كثير من الفاظها ، ومن أجل ذلك جعل علماء العربية اللغة على قسمين ، منها ما يتدارك بالقياس ، ومنها ما لابد فيه من السماع واخذه كما ورد عن العرب ، فأنت تجد علماء العربية مثلا (يقولون في وصايا الجمع : ان ما كان من الكلام على فَعْل فتكسيره على أفعل ، ككلب وأكلب ، وكعب واكعب ، وفرخ وأفرخ • وما كان على غير ذلك من أبنية الثلاثي فتكسيره في القلة على أفعال ، نحو جبل وأجبال ، وعُنُق واعناق ، وابل ، آبال ، وعَجُز واعجاز ورُبَع وأرباع [الرُبع : ولد الناقة ينتج في أول الربيع] ، وضلع وأضلاع ، وكبد واكباد ، وقفل وأقفال ، وحمل وأحمال • فليت شعري هل قالوا هذا ليعرف وحده ، أو ليعرف هو ويقاس عليه غيره • الاتراك لو لم تسمع تكسير واحد من هذه الامثلة بل سمعته منفرداً أكنت تحتشم من تكسيره على ما كسّر عليه نظيره ؟ لا ، بل كنت تحمله عليه للوصية التي تقدمت لك في بابه • وذلك كأن يحتاج الى تكسير الرجز الذي هو العذاب ، فكنت

قائلا لا محالة أرجاز قياسا على أحمال وان لم تسمع ارجازا بهذا المعنى : قولهم ان كان الماضي على فعُل المضارع منه على يفعل ، فلو أنك على هذا سمعت ماضيا على فعل لقلت في مضارعه يفعل وان لم تسمع ذلك . كأن يسمع سامع ضؤل ولا يسمع مضارعه ، فانه يقول فيه يضؤل وان لم يسمع ذلك ولا يحتاج أن يتوقف الى أن يسمعه ، لأنه لو كان محتاجا الى ذلك لما كان لهذه الحدود والقوانين التي وضعها المتقدمون وتقبلوها وعمل بها المتأخرون معنى يفاد ، ولا غرض ينتحيه الاعتماد ، ولكان القوم قد جاءوا بجميع المواضي ، والمضارعات، واسماء الفاعلين والمفعولين ، ... ولما أقنعهم أن يقولوا : اذا كان الماضي كذا وجب أن يكون مضارعه كذا ، واسم فاعله كذا ، واسم مفعوله كذا .. دون أن يستوفوا كل شيء من ذلك فيوردوه لفظا منصوصا معينا لا مقيسا ولا مستنبطا .. لكن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين : أحدهما ما لابد من تقبله كهيئته ، لا بوصية فيه ، ولا تنبيه عليه ... ومنه ما وجدوه يتدارك بالقياس وتخف الكلفة في علمه على الناس ، فقننوه وفصلوه اذا قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب ، المغني عن المذهب الحزن البعيد . وعلى ذلك قدّم الناس في أول المقصور والممدود ما يتدارك بالقياس والأمارات ، ثم أتلوه ما لابد له من السماع والروايات ، فقالوا : المقصور من حاله كذا ومن صفته كذا ، والممدود من أمره كذا ومن سببه كذا ، وقالوا في المذكر والمؤنث : علامات التأنيث كذا واوصافها كذا ، ثم لما انجزوا ذلك ، قالوا : ومن المؤنث

الذي روي رواية كذا وكذا · فهذا مـن الوضــوح على ما لا خفاء به ·

فلما رأى القوم كثيرا من اللغة مقيسا منقاداً وســـموه بمواسمه ، وغنوا بذلك عن الاطالة والاسهاب فيما ينوب عنه الاختصار والايجاز · ثم لما تجاوزوا ذلك الى ما لابد من ايراده ونص ألفاظه التزموا وألزموا كلفته ، اذ لم يجدوا منها بدا ، ولا عنها منصرفا ، ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا ، لكن ما أمكن ذلك فيه قلنا به ، ونبهنا عليه ، كما فعله من قبلنا ممن نحن له متبعون ، وعلى مثله وأوضاعه حاذون · ·

فهذا منهب العلماء بلغة العرب وما ينبغي أن يعمل عليه ويؤخذ به ، فأمضه على ما أريناه وحددناه ، غيــر هائـــب ولا مرتاب به · وهو كثير ، وفيما جئنا به منه كاف) (١٠٣) ·

وهذا الذي جاء به في هذا الباب يحمل أصولا نافعة في باب القياس على كلام العرب يمكن أن يجد فيها العاملون اليوم في حقل التعريب معيناً ثراً يمكن أن ينهلوا منه وهم يقومون بعملهم العلمي الجليل في خدمة لغة هذه الأمة الكريمة ·

هوامش الفصل الثاني

(١) الخصائص ١/٤٠ ·
(٢) نفسه ١/٤٧ ·
(٣) نفسه ١/١٧ ، ٢/١١٣ ·

(٤) نفسه ٢/١٦٦ .

(٥) نفسه ١/٢٣٩ .

(٦) نفسه ١/٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٧) انظر مقدمة الخصائص ١/٣٤ .

(٨) الخصائص ٢/١١٨ .

(٩) نفسه ٢/١٢٠ ، ١٢١ .

(١٠) نفسه ٣/٢٤٥ .

(١١) نفسه ٣/٢٤٦ .

(١٢) اوزان الفعل ومعانيها ص٥٨ .

(١٣) الخصائص ٣/٢٥٣ ـ ٢٥٥ .

(١٤) علم اللغة العام ص٨٧ ، وانظر : الالسنية : مبادئها واعلامها ص١٨١ .

(١٥) الممتع ص٤٠ .

(١٦) تاريخ اللغات السامية ص١٤ ، وانظر : دراسات في فقه اللغة ص٤٨ .

(١٧) العين ١/١١٠ .

(١٨) الخصائص ١/٥ ، ١٣ وسيأتي تفصيل ذلك .

(١٩) نفسه ٢/١٣٤ ـ ١٣٨ .

(٢٠) نفسه ٢/١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢١) نفسه ١/١٢ ، ١٣ .

(٢٢) نفسه ٢/١٣٣ .

(٢٣) نفسه ١/١١ ، ١٢ .
(٢٤) لم يرد في كتب الصحاح ، انظر : ونسك مادة (أكل) جـ١ ومادة (لوق) جـ٦ فلا أثر له في الموضعين .
(٢٥) الخصائص ١/٥ ـ ١٧ .
(٢٦) عمدة الصرف ص١١ ـ ١٢ .
(٢٧) الكتاب ٢/٢١٨ .
(٢٨) الخصائص ٢/١٥٢ .
(٢٩) المحتسب ٢/٢١٠ .
(٣٠) الخصائص ٢/١٥٤ .
(٣١) نفسه ٢/١٦٢ ، ١٦٣ وانظر ايضا : التمام ص١٣٠ .
(٣٢) الخصائص ١/٦٥ .
(٣٣) ذكر ابن السراج أن (غاق) حكاية صوت الغراب ، و(عاء) و(حاء) : زجر ، انظر الاصول ٢/١٤٣ .
(٣٤) الخصائص ٢/١٦٥ .
(٣٥) المحتسب ٢/١٨ .
(٣٦) نفسه ٢/١٩ ومنه النص الآتي أيضا .
(٣٧) انظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٢٨٧ وما بعدها .
(٣٨) موسيقى الشعر ص٢٣ والنص الأتي من ص٢٤ .
(٣٩) الخصائص ١/٥٤ .
(٤٠) التنبيه ص٣٢٠ .
(٤١) الخصائص ٢/١٦٠ .

(٤٢) التمام ص١٣٠ وانظر التنبيه ص٣١٩ ٠
(٤٣) الخصائص ٢/١٤٦ ٠
(٤٤) انظر هامش (٤٢) ٠
(٤٥) الخصائص ٢/١٥٨ ٠
(٤٦) التنبيه ص٣٢٠ ٠
(٤٧) الخصائص ٢/١٦١ ٠
(٤٨) التمام ص١٣٠ ٠
(٤٩) المحتسب ٢/٥٥ ، وذكر ابن دريد أنه قرىء : قبضت وقبصت ولم يشر الى فرق بينهما ٠ وانظـــر الاشتقاق ص١٩٤ ٠
(٥٠) الخصائص ٢/١٥٨ ٠
(٥١) نفسه ٢/١٤٩ ومنه النص الآتي أيضا والذي يليه ٠
(٥٢) المحتسب ١/٣٢٢ ٠
(٥٣) انظر التمهيد في علم التجويد ص ٩٦ ٠
(٥٤) الخصائص ٢/١٦٦ ٠
(٥٥) الخصائص ٣/٧٥ ـ ٨٠ ٠
(٥٦) نفسه ٣/٢٦٤ ـ ٢٦٨ ٠
(٥٧) العربية ص٤ ٠
(٥٨) الخصائص ٢/١٥ ـ ١٦ ٠
(٥٩) يقول الحجازي : ما زيد قائما ، ويقول التميمي : ما زيد قائم ، وفي الاستفهام يقول الحجازي في رد الاستفهام في

نحو : أرأيت زيداً ؟ من زيداً ؟ ويقول التميمي في ذلك :
من زيد ؟

(٦٠) في الادب الجاهلي ص٨٤ ·
(٦١) العربية ص٧ ـ ٨ ·
(٦٢) الخصائص ٢/١٢ ·
(٦٣) نفسه ٢/١٠ ·
(٦٤) نفسه ١/١٢٥ والنص الآتي منه أيضا ·
(٦٥) نفسه ٢/١٠ ·
(٦٦) الاشباه والنظائر ١/٢٧٧ ·
(٦٧) الخصائص ١/٣٧١ ·
(٦٨) نفسه ٢/١٢ والنص الآتي منه أيضا ·
(٦٩) نفسه ١/٩٧ ، وانظر المنصف ١/٢٧٨ ·
(٧٠) نفسه ١/٩٩ والنص الآتي منه أيضا ·
(٧١) المنصف ١/٥٤ ·
(٧٢) انظر تفصيل ذلك في الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٢٥٢ ·
(٧٣) المنصف ٢/٤٥ ·
(٧٤) الخصائص ١/٣٨٥ ·
(٧٥) نفسه ٢/١٢ ·
(٧٦) نفسه ١/٣٨٧ ·
(٧٧) نفسه ٢/٢٦ ·
(٧٨) نفسه ٣/٢٧٣ وانظر المنصف ١/٣١١ ·

(٧٩) نفسه ١/٣٧٤ .

(٨٠) نفسه ٢/١٥ .

(٨١) نفسه ١/٣٨٣ .

(٨٢) نفسه ١/٣٨٠ .

(٨٣) نفسه ١/٣٨١ .

(٨٤) المنصف ١/٢٥٦ .

(٨٥) نفسه ١/٢٥٧ .

(٨٦) الخصائص ٣/٩٥ .

(٨٧) المحتسب ١/٢٨٨ .

(٨٨) نفسه ٢/٥ .

(٨٩) سر الصناعة ١/٥١ .

(٩٠) الخصائص ٢/٢٦٠ .

(٩١) المحتسب ١/٣٤٣ .

(٩٢) سر الصناعة ١/١٦٥ .

(٩٣) نفسه ١/٣١٨ .

(٩٤) الخصائص ٣/٣٦ .

(٩٥) نفسه ١/١٢٥ .

(٩٦) المحتسب ١/٢٥٥ .

(٩٧) المنصف ٢/١٤٣ .

(٩٨) نفسه ١/٢٥١ .

(٩٩) الخصائص ١/٣٥٧ .

(١٠٠) نفسه ١/١١٤ .

(١٠١) المنصف ١/١٣٩ .

(١٠٢) الخصائص ١/٣٦٠ .

(١٠٣) نفسه ٢/٤٠ ـ ٤٣ .

الفصل الثالث

ابن جني والدرس اللغوي الحديث

الدرس اللغوي الحديث :

يمكن أن يؤرخ لانطلاقة الدراسات اللغوية الحديثة في الغرب بصدور كتاب فردينان دي سوسور (محاضرات في علم اللغة العام) فقد أحدث هذا الكتاب حركة من التنظير اللغوي عند أمم الغرب ، منذ نشره تلامذته سنة ١٩١٦م ، أي بعد وفاة سوسور بثلاث سنوات ٠

فقد مضت النظريات في اطار الدرس البنيوي الآني أو التزامني (السنكروني) للغة ، وكادت تستقر على المنهج البنيوي الهيكلي ، مركزة على درس وظائف الأصوات اللغوية (التشكيل الصوتي) في أوربا ، ودراسة الوحدة الصوتية الصغرى (الصويتة) في أمريكا [١] ٠

الا انها في النصف الثاني من القرن العشرين أخذت تتنوع وتتشعب وتتحول ، بصورة جعلت الباحثين ينتظرون أن يطلع عليهم في أي وقت منظر جديد بنظرية لسانية جديدة ، يقول جورج مونان : (فالألسنية بحكم تطورها الجارف قد تغيرت كثيرا سنة ١٩٦٨م [سنة تأليف كتابه] في ظاهر الأمر على الأقل ، فقد برزت في كل مكان نظريات (ونماذج) ألسنية ، وفرضيات ، ومصطلحات ، الى حد التشتت ، والى حد البلبلة ، فلا ابن امه اليوم لا يؤسس ، او لا يفكر في أن يؤسس لنفسه في الالسنية (ثية) خاصة به ٠ وقد أصبح

الاختيار صعبا في سوق غمرتها المنافسة على الطريقة الامريكية ، بنظريات كلها (موحدة) و (مكممة) و(مشكلنة) اكثر من بعضها البعض . ان الزمن ولا ريب سوف يغربل غربلة قاسية) (٢) .

ويؤكد د . محمد الحناش هذه المعاني بعد عشرة اعوام من صدور كتاب جورج مونان فيقول : (ولا يخفى على القارىء التشعب والتطور اللذان عرفتهما هذه المدارس ، وهي دائما في تطور مستمر ، ولا تكاد مدرسة لسانية تستقر وتنسب لنفسها التجديد حتى تظهر الى جانبها مدرسة أخرى تكون اكثر جدة منها) (٣) .

بل ان أوسع هذه النظريات شهرة اليوم وهي نظرية النحو التحويلي ، لم تسلم من هذا التحول ، سواء في آراء منظّرها ، أو في ظهور فرع نام مجاور لها ـ أعني التأويلية التحويلية ، فقد لاحظت جوديت گرين على النظرية عدم استقرارها ، وخضوعها لتغييرات أساسية منذ ظهورها وصرّحت بذلك في قولها : (تبرز مشكلة خاصة عند محاولة عرض هذه النظرية ، اذ أتُقدّم في صورتها التي وصلت اليها بأخرة ، أم ينبغي أن نتناولها في مراحل تطورها ؟ ، ذلك أنه منذ نشر تشومسكي كتابه : (البُنى التركيبية) عام ١٩٥٧م خضعت أفكاره لعدة تغيرات تتضمن ظاهريا اصلاحات جوهرية ، جعلت العديد من الناس ييأسون من بقاء النظرية معاصرة !) (٤) .

وقد برزت بسبب هذه النظريات اللغوية (او اللسانية ان شئت) أفكار ووجهات نظر متعددة متباينة ، أحدثت أثرها

في الدرس اللغوي العربي المعاصر ، فمن ذلك مثلا : التركيز على المنهج الوصفي في دراسة اللغة ، والعناية بدراسة الصوت اللغـوي المفـرد ، والصـوت اللغـوي في التشـكيل ، أو كمـا عبروا عـن ذلـك بـدراسـة الفونيتـك والفونولوجيا • ومن ذلك توجه الباحثين في نشأة اللغات الى العناية بالنظرية الصوتية • ومن ذلك الافكار التي عرضها دي سوسور بشأن اللغة والكلام ، واعتباطية الاشارة اللغوية ، وحديثه عن الصورة الصوتية الذهنية • ومن ذلك ما ورد عند تشومسكي من كلام على الكفاية اللغوية ، والبنيـة السـطحية والعميقة للغة •• الى غير ذلك مما اعتنت به الدراسة اللغوية الحديثة في الغرب ، ووجد صداه في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة •

وقد آثرنا أن نتناول عدداً من هذه الامور مطلعين على ما يمكن أن يكون مما وافقت فيه هذه الدراسات ما ورد عند علماء العربية القدماء ، ولاسيما عند ابن جني ، سواء كان ما نورده عنه من ابتكاره هو ، أو مما قال به موافقا من تقدمه من علمائنا •

النظرية الصوتية في نشأة اللغة :

اتجه فريق من دارسي اللغة في الغـرب الى التفكيـر الصوتي المحض في الكلام على نشأة اللغة ، فكانت لهم بذلك آراء (٥) ، منها رأي القائلين بمحاكاة الأصـوات الطبيعية ، وواقع اللغات (يبرهن على أن كثيرا من كلمـات اللغـات الانسانية قد انحدرت من تلك الأصوات) (٦) •

والنظرية الصوتية لم يفردها ابن جني بالبحث ، وانما ذكرها عرضا وهو يتكلم على نظرية التواضع والاصطلاح ، فهي كما يبدو ليست قسما برأسه ، انما هي من التواضع والاصطلاح ، وكأن أمر اللغة عنده في الأصل لا يعدو أحد رأيين: فاما ان تكون اللغة الهاما من الله سبحانه ، واما ان تكون من الانسان ، وليس مهما بعد ذلك الطريقة التي تكون بها ، هذه واحدة ، الثانية : أنه لم يعزُ القول بالنشأة الصوتية الى نفسه على انه مبتكر ذلك الرأي ، ولم يذكر مَن صاحبه الذي أخذه عنه ، انما قال : (وذهب بعضهم ٠٠) الثالثة : أنه أبدى رضاه عن هذا المذهب في نشأة اللغة بعبارة صريحة (٠٠ وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل) ، الرابعة : أنه أورد قاعدة عامة نسبها للاخفش أوردها بصورة قاطعة لا نرى فيها تردده الذي نراه في كلامه على المختار من الرأيين في نشأة اللغة : (وكيف تصرفت الحال وعلى أي الأمرين كان ابتداؤها فانها لابد أن يكون وقع أول الأمر بعضها ثم احتيج فيما بعد الى الزيادة عليه لحضور الداعي اليه فزيد فيها شيئا فشيئا)(٧) ، الخامسة : أن ابن جني قد أبدى استعداده لاسقاط كل رأي سوى الالهام اذا ورد الخبر الصحيح بذلك ، وعبارته واضحة في أنه لم يقف على خبر صحيح في نشأة اللغة وان لم يذكر ذلك صراحة : (واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به (٨) ، ولكنه لم يعتقده ، ولم ينطو على القول به ، اي ان الخبر الصحيح لم يرده في هذا الأمر ٠

وقد ذكر السيوطي جملة أخبار في الجزء الأول من المزهر خبّر فيها ثماني صفحات[٩] في تفسير قوله تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها) ، ولا يطمئن القلب اليها ، اذ ليس فيها خبر صحيح واحد في نشأة اللغة ، مع ما فيها من تناقض يتعذر على الجمع .

في ضوء ما مر أحسب أنه يمكن أن نورد كلمة ابن جني في النشأة الصوتية للغة ، قال : (وذهب بعضهم الى ان أصل اللغات انما هو من الأصوات المسموعات ، كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل) (١٠) .

وقد بحثت عن صاحب الرأي الذي اشار اليه ابن جني بكلمة : بعضهم ، فلم أقف على شيء يذكر .

ولعل ابن جني لم يذكر قائل تلك الكلمة لأن الذي سمعها منه لم يكن ممن يعتد برأيه من العلماء ، أو انه وجدها في كتاب لم يعرف نسبته ، أو أن الذي نقلها اليه لم ينسبها ، أو أن الكلمة وصلت اليه منسوبة لغير العرب فلم يشأ أن يصرح بنسبتها واكتفى بكلمة : بعضهم ، وعلى أي حال ، لعل احياء التراث ونشر المخطوطات يكشف لنا في يوم من الأيام حقيقة المسألة ، ويعيّن العالم الذي سبق ابن جني في كلمته تلك ، وتبقى الكلمة حتى ذلك الحين مقرونة باسمه لا تتحول عنه .

انه بامكاننا ان نصوغ النظرية الصوتية عند ابن جني وفق التصور الآتي اعتمادا على الجمع بين كلمته في الأصوات وقد ختمها بقوله (وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل) وبين القاعدة التي قرر فيها أن اللغة لابد أن يكون قد وقع أول الامر بعضها ثم زيد عليها للحاجة اليها ، فنقول : ان الانسان بدأ بمحاكاة الأصوات الطبيعية أول الأمر (دوي الريح ، خرير الماء ، نعيق الغراب ، صهيل الفرس) . وأخذ يعبر عن تلك الظواهر الطبيعية بحكاية أصواتها ، وكانت تلك بداية انتباهه الى استعمال جهازه الصوتي ، ونفترض أنه وجد راحة في ذلك اذ أستطاع أن يعبر عما يدور في فكره وينقله الى الآخرين ولو بصورة بدائية ، ونفترض أيضا أنه مرّ زمن ما لا ندري مقداره حاول الانسان فيه أن يطور استفادته من جهازه الصوتي ليعبر عن أمور الحياة الاخرى التي لا علاقة لها بالاصوات الطبيعية ، بحسب تجدد حاجته الى التعبير ، ونمو قدراته العقلية بما استجد عنده من تجارب (لقد نشأ الكلام بالتدريج)[11] ، المهم أن محاكاته تلك الاصوات التي أشرنا اليها وغيرها من الاصوات الطبيعية ، أو قل من محاولة المحاكاة ، قد أثارت فيه الشعور بامكان الاستفادة من جهازه الصوتي في الرمز الى الاشياء ، وهل اللغة الا هذه الاصوات التي ترمز الى المعاني ، أو كما قال ابن جني (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) [12] .

ان الدراسات الحديثة لم تنه كلامها حتى اليوم في نشأة اللغات ، الا أن الاتجاه في عمومه سائر نحو الدراسات

الصوتية فيها ، ولذا يبقى كلام ابن جني في الأصوات طريّاً جديداً على تقادم العهد به ، وله بذلك فضل السبق في ايراده وان لم يكن قد عزاه لنفسه ، أو جعله رأيا قائما برأسه ·

وهكذا يتبين لنا أن الكلام الذي أورده في النظرية الصوتية كان قفزة زمنية يطلّ بها من خلف أكثر من ألف عام على علماء اللغة المحدثين ، لينقل لهم ومضة فكر لم يجدوا في هذا العصر على تقادم الزمان الا أن يروا رأيا أورده مع شيء من التغيير الطفيف بما يناسب التقدم الحضاري ، وأجهزة الدراسات الصوتية التي أمدهم بها العلم الحديث ·

اللغة بين سوسور وابن جني :

تتشعب عبارة دي سوسور وتنتشر في مواضع متعددة من كتابه من الفصل الثالث والرابع والخامس (ص٢٦ــ٢٨) وهي تتحدث أول الأمر تحت عنوان: تعريف اللغة ، ثم لا تكاد تجد لها تعريفا تستطيع أن تقتبسه من الكتاب بعبارات مؤلفه ، وانما عليك أنت أن تخرج بتعريف اللغة بالمفهوم السوسوري من خلال كلامه على اللغة ، واللسان (اقترحنا له : الكينونة اللغوية) (١٣) ، والفرق بين اللغة والكلام ·

فقد بدأ كلامه عن الهدف الطبيعي لعلم اللغة ، مشيرا الى المنهج الصوتي ، والمنهج الدلالي ، والمنهج التاريخي ، في دراسة الكلمة ، ثم انتقل الى ثنائياته في النطق والسمع ، والصوت والفكرة ، والفردية والاجتماعية ، والثبات والتطور · ثم عاد ليسأل : (ولكن ما اللغة (Langue) ؟ ينبغي أن نميز بينها وبين اللسان البشري (Langage) ، فاللغة جزء

محدد من اللسان ، مع أنه جزء جوهري ـ لاشك ـ اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان ، ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة)(١٤)٠

ولا أراك ظفرت بحد اللغة من هذا الكلام ، فما النتـاج الاجتماعي ؟ وما التقاليد الضرورية التي تبناها المجتمع ؟ وكيف يسوغ استعمال هذا العموم في محاولة تحديـد مفهوم مـن المفاهيم التي ينبني عليها الكتاب ؟ ومن أجل ذلك نجده يعود مرة أخرى ليتحدث عن علاقة اللغة بملكة النطق ، فهي الوسيلة التي تبدعها المجموعة لتساعد في خدمة ملكة النطـق : (ان وضع اللغة في منزلة الصدارة في دراسة اللسان يساعدنا على مناقشة مسألة اخرى هي الأخيرة في هذا الموضوع ، وأقصد بذلك ملكة النطق بالكلمات ، سـواء كانت طبيعيـة أم لا ، فممارسة هذه الملكة لا يكون الا بمساعدة الوسيلة التي تبدعها المجموعة وتضعها في خدمة هذه الملكة ، اذن فالقول بأن اللغة تضفي كيانا موحدا على اللسان ليس بالشيء الغريب)(١٥) ٠

ثم يحدثنا عن الصور الصوتية (حيث ترتبط الحقائق الفكرية (الافكار) بما يمثلها من الأصوات اللغوية (الصور الصوتية) التي تستخدم للتعبير عن هذه الافكار ، فالفكـرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها)(١٦) ٠

وليس هذا كل شيء بل (ينبغي أن نذكر ملكة الارتباط والتنسيق التي نصادفها بعد الانتقال من الاشارات المفردة ٠ ان هذه الملكة لها دور أساسي في ترتيب اللغة بهيئة نظام ٠

ولكن اذا أردنا أن نفهم بوضوح دور ملكة الارتباط والتنسيق فعلينا أن ننتقل من العمل الفردي الذي هو بمثابة الجنين بالنسبة للسان ، ونتناول الحقيقة الاجتماعية)(١٧) ·

ثم يتقدم خطوة اخرى في ايضاح مسألة اللغة فيقول : (تقوم ملكة الاستقبال وملكة التنسيق بوظائفهما فينتج عن ذلك صور أو انطباعات ذهنية واحدة ، لأن جميعها تحدث في عقول المتكلمين · فكيف يمكن أن يصور هذا النتاج الاجتماعي بإسلوب تظهر معه اللغة مستقلة منفصلة عن أي شيء آخر؟ ·

لو استطعنا أن نحصل على جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الأفراد لا ستطعنا أن نميز الجزء الاجتماعي الذي يؤلف اللغة ، فهو مخزن يملؤه أفراد مجتمع معين عن طريق الاستعمال الفعال للكلام ، وهو نظام نحوي له وجود خامد في دماغ كل فرد ، أو باسلوب أدق ، في أدمغة مجموعة من الافراد، فاللغة غير كاملة في الفرد ، بل يكمل وجودها في المجموعة)(١٨) ·

وأخيراً يحدثنا عن الكلام واللغة ليذكر لنا في خلال ذلك وجود اللغة على هيئة ذخيرة من الانطباعات المخزونة في أدمغة أفراد المجتمع : (اللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين ، ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع) ·

ولو أردت استخراج حدّ اللغة من كلّ ما مرّ ، فانك

تستطيع أن تقول : ان اللغة بالمفهوم السوسوري هي : مجموع الذخيرة من الصور الصوتية الدالة المخزونة في أذهان الأفراد في مجتمع مـا ٠

وانظر كيف جمعنا المفاهيم التي نثرها سوسور لنخرج بحد اللغة عنده ٠

ولاشك في أن اضفاء سمة الاجتماعية على هذه الصـور الصوتية الذهنية ، يجعلها ظاهرة اجتماعية ٠ كذلك لا يمكن ان يكون لهذه الصور الذهنية وجود اجتماعي حقيقـي ، بـل لا تكون لها حياة ما لم يمارسها افراد المجتمع ، وتتحول من صور صوتية ذهنية الى أصوات لغوية حية ، وهذا ما عبر عنه سوسور بمصطلح (الكلام) ٠ والى مثل هذا كله سبق ابن جني بعبارة موجزة دقيقة ، حين قال عن اللغة انها (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)(١٩) ، وانظر الى هذا الوضوح والايجاز في ذكر حد اللغة ٠

فذكر القوم في الحد تصريح باجتماعية اللغة ، فاللغـة عنده اذن ظاهرة اجتماعية لا تكون الا في قوم ٠ والتعبير عن الأغراض ، دليل التواصل ، لأن مستعمل اللغة لا يلقي الكلمات على أنها أصوات لا فائدة منها ، وانما لابد أن يكون للمتكلم غاية من كلامه ، كي يتم نقل الفكرة من دماغه الى دمـاغ المستمع ٠

وذكر الأصوات تصريح بماهية الدوال التي كانت وسيلة تواصل بين هؤلاء القوم ، ولاشك في أن هذه الأصوات الدالة كانت مصطلحا عليها قبل أن تخزن صورها في أذهان أفـراد

المجتمع ثم لما دعت الحاجة الى استعمالها تحولت من صور صوتية في الذهن الى أصوات لغوية صادرة عن جهاز النطق الانساني .

وهكذا نجد التلاقي بين فكرة سوسور وعبارة ابن جني التي تقدمتها بما يقرب من الف عام .

الصورة الصوتية :

يتحدث دي سوسور عن الصور الصوتية المخزونة في الذهن ، وانها صور نفسية ، وان الدماغ يصدر أمره الى أعضاء النطق لمنح هذه الصور حياتها الصوتية الفيزياوية .

ومعنى ذلك أن الصورة الذهنية لأصوات الكلمة سابقة للصورة الفيزياوية ، أي أن المتكلم يدرك ذهنيا قبل ان يلفظ الأصوات ما يمكن ان يجري من تغيرات صوتية عند نطق الأصوات المتجاورة في السلسلة الكلامية .

وهكذا يمكن ان يظهر أثر الصوت المتأخر في الصوت المتقدم في النطق وان كان المتأخر لم يتحقق نطقه بعد ، لأن صورته الذهنية أنبأت المتكلم ، من خلال تجاربه النطقية السابقة ، أن هذا الصوت اذا تلاه هذا الصوت أصبح الأول لتأثره بالثاني في هذه الصورة ، ولذلك فهو يُجري أثره قبل مجيئه .

ولم يتحدث ابن جني عن الصورة الصوتية بهذا المصطلح ، ولكنه تحدث عن ابدال بعض الأصوات لما يتوقع من مجيء أصوات بعدها . ولاشك في أن توقع الصوت انما جاء من حضوره في الصورة الذهنية .

يقول دي سوسور : (لنفرض أن شخصين أ و ب يتحدثان الى بعضهما ، ولنفرض أن بداية الدائرة هي في دماغ أ حيث ترتبط الحقائق الفكرية (الافكار) بما يمثلها من الأصوات اللغوية (الصورة الصوتية) التي تستخدم للتعبير عن هذه الأفكار • فالفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها ، وهذه الظاهرة السايكولوجية تتبعها عملية فسلجية ، اذ يرسل الدماغ اشارة مناسبة للصورة الى الاعضاء المستعملة لانتاج الاصوات فتنتقل الموجات الصوتية من فم الشخص أ الى اذن الشخص ب • ينبغي ان نذكر أن صور الكلمات تتمييز عن الصوت نفسه ، وان هذه الصور انما هي سايكولوجية ، كما ان الافكار التي ترتبط بها سايكولوجية)(٢٠) •

وهذا الكلام على الصور الصوتية نجد تطبيقه العملي عند ابن جنّي في حديثه عما ثبت في النفس وجوده ، وانه اذا كان كذلك كان كأنه حاضر مشاهد : (قالوا : أُقتُل ، فضموا الأول توقعا للضمة تأتي من بعد •• فأثر المتوقَع،لأنه كأنه حاضر،وعلى ذلك قالوا : امرأة شمباء ، وقالوا العمبر ، ونساء شمب ، فأبدلوا النون ميما لما يتوقع من مجيء الباء بعدها • وعليه أيضا أبدلوا الأول للآخر في الادغام نحو مرّأيت ، واذهفّي ذلك ، واصحمطرا ، فهذا كله وما يجري مجراه مما يطول ذكره يشهد لأن كل ما يتوقع اذا ثبت في النفس كونه . كان كأنه حاضر مشاهد) (٢١) •

وهمزه (أقتل) ضمت لأجل التاء المضمومة ، والا فان همزة الأمر مع غير المضموم العين تكون مكسورة سواء كانت العين مفتوحة أم مكسورة نحو : اسمع ، وارجع • وشمباء والعمبر وشمب أصل الميم فيها جميعا نون : شنباء ، العنبر ، شنب ، ولكنها لما جاورت الباء قلبت ميما ، وهذا ما يسميه العلماء بالاقلاب ، وفيه تأثير الباء في النون وتحويلها الى صوت فيه من المؤثر المخرج وهو الشفتان ، ومن المتأثر الغنة •

واما مرّأيت ، فأصله من رأيت ، جاورت النون الراء فأثرت الثانية في الأولى فقلبت النون راء ، وادغمت في الراء من غير غنة • واما اذهفي ذلك ، فأصله : اذهب في ذلك ، جاورت الباء الفاء ، فجاز ايقاع أثرها على الباء وقلبها فاء وادغامها في الفاء • وأصل اصحّمطرا : اصحب مطرا ، حيث جاورت الباء المميم ، والقول في ذلك كالقول في مجاورتها الفاء ، قال ابن الجزري : (واذا سكنت ــ يعني الباء ــ ولقيها ميم أو فاء ، نحو قوله : « يابني اركب معنا » « أو يغلب فسوف » جاز فيها الاظهار والادغام ، فالاظهار لاختلاف اللفظ ، والادغام لقرب المخرج)(٢٢) •

وهكذا تجد حديث ابن جني عن المتوقع ، الثابت في النفس وجوده ، الذي كأنه حاضر مشاهد ، يساوق حديث سوسور عن الصور الذهنية للالفاظ • وليس هذا وحده عند ابن جني مما يندرج تحت الصور الذهنية بل ان فيما قاله عن الكلام والقول ما يمكن ان يعد تصريحا بهذه الصور ، فاللغة غير المكتوبة اذا نزعنا عنها الأصوات المنطوقة لم تبق الا

صورها الذهنية ، وهذا أمر واضح : (وثبت أن القول عندها ـ يعني العرب ، أوسع من الكلام تصرفا ، وانه قد يقع على الجزء الواحد ، وعلى الجملة ، وعلى ما هو اعتقاد ورأي لا لفظ وجرس) (٢٣) .

وكيف يكون الاعتقاد من غير لفظ وجرس اذا لم يكن صوراً ذهنية للأصوات الدالة ؟ .

المصطلحات الثلاثة :

يطالعنا الفصل الثالث من كتاب دي سوسور بثلاثة مصطلحات هي : Parole . Langue , Langage

وقد اختلف الناس في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة اختلافا ظاهراً(٢٤) ، وهي في ترجمة د . يوئيل يوسف عزيز : اللسان ، واللغة ، والكلام . وقد رأينا من خلال ما أورده سوسور من ايضاح لمفهوم المصطلحات أن أفضل ما يترجم به (Langage) هو : (الكينونة اللغوية) ذلك اننا وجدنا هذه اللفظة تعني عنده العوامل التي تتضافر لتكون اللغة ، ولذلك جعل Langue) جزءاً من (Langage) ووصف الثانية بتعدد الجوانب وعدم التجانس ، اذ هي (تشتمل على عدة جوانب في آن واحد كالجانب الفيزيائي (الطبيعي) والجانب الفسلجي (الوظيفي) والجانب السايكولوجي (النفسي) (٢٥) ، وذلك واضح أيضا من كلامه في موضع آخر (٢٦) ، فالمصطلح عنده يعني الصوت اللغوي المعبر عن فكرة ، وجهاز النطق الذي أصدره الصوت اللغوي ، والثلث

الأيسر من الجزء الامامي من الدماغ حيث ملكة الكلام ، والحالة النفسية التي تؤدي الى ربط المتصور بالصورة الصوتية ، والوسط الناقل للصوت اللغوي ، وجهاز الاستقبال لدى السامع (الأذن) بتفصيلاته التشريحية ، وعملية النقل الى الدماغ ، المصطلح اذن يعني عنده مجموع العوامل الفيزياوية والعضوية والنفسية التي تتضافر لتكون لغة ما انسانية . وما أجدر مثل هذا المفهوم أن تكون ترجمته الكينونة اللغوية . لان ذلك أقرب الى المراد وأبعد عن اللبس .

الذي نريده من هذا أن سوسور استعمل مصطلحات تمييزية خاصة في الدرس اللغوي ، عرض بوساطتها ثلاثة مفاهيم ، فمصطلح يعبر به عن الانجاز الفردي من اللغة وهو (الكلام) ومصطلح يعبر به عن صور الكلام المخزونة في أدمغة أفراد المجتمع وهو (اللغة) ومصطلح ثالث يعبر به عما يمكن أن ينضوي تحته الكلام واللغة وجميع العوامل المؤدية الى انتاج الكلام وهو (الكينونة اللغوية) على ما اقترحناه من ترجمة المصطلح .

وقد رأينا ابن جني يستعمل أيضا ثلاثة مصطلحات تمييزية في الدرس اللغوي هي القول ، والكلام ، واللغة . أما اللغة فقد ذكرنا كلامه عليها ، ووضعه حداً علمياً لها حين عرفها بقوله انها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

وأما القول والكلام فقد عقد لهما بابا تكلم فيه على الفرق بينهما جعله تحت عنوان : هذا باب القول على الفصل بين

الكلام والقول ، ومما قاله في ذلك : (أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيدة لمعناه • وهو الذي يسميه النحويون الجمل ، نحو : زيد أخوك ، وقام محمد ، وضرب سعيد ، وفي الدار أبوك ، وصه ، ومه •• فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام •

واما القول فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان ، تاما كان أو ناقصا ، فالتام هو المفيد ، أعني الجملة وما كان في معناها من نحو : صه ، وايه ، والناقص ما كان بضد ذلك ، نحو : زيد : ومحمد ، وان ، وكان أخوك ، اذا كانت الزمانيـــة لا الحدثية [يعني كان الناقصة لا التامة] •

فكل كلام قول ، وليس كل قول كلاما • هذا أصلـه ، ثم يُتّسع فيه فيوضع القول على الاعتقادات والآراء ، وذلك نحو قولك : فلان يقول بقول أبي حنيفة ، ويذهـب الى قـول مالك ، ونحو ذلك ، أي يعتقد ما كانا يريانه ، ويقولان به . لا أنه يحكي لفظهما عينه من غير تغيير لشيء من حروفه •

ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول اجماع الناس على أن يقولوا : القرآن كلام الله ، ولا يقال القرآن قول الله ، وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر ، لا يمكن تحريفه . ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه • معبر لذلك عنه بالكـلام الذي لا يكون الا أصواتا تامة مفيدة . وعدل به عن القول الذي قد يكون أصواتا غير مفيدة ، وآراء معتقدة • قال سيبويه : « واعلم أن (قلت) في كلام العرب انما وقعت على أن يحكى

بها ، وانما يحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا » ففرق بين الكلام والقول كما ترى .. الكلام عنده ما كان من الالفاظ قائما برأسه ، مستقلا بمعناه ، وان القول عنده بخلاف ذلك . اذ لو كانت حال القول عنده حال الكلام لما قدم الفصل بينهما ، ولما أراك فيه أن الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها ، الغانية عن غيرها ، وان القول لا يستحق هذه الصفة ، من حيث كانت الكلمة الواحدة قولا ، وان لم تكن كلاما ، ومن حيث كان الاعتقاد والرأي قولا ، وان لم يكن كلاما .

فقد ثبت بما شرحناه واوضحناه ان الكلام انما هو في لغة العرب عبارة عن الالفاظ القائمة برؤوسها ، المستغنية عن غيرها ، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجُمَل ، على اختلاف تركيبها .

وثبت أن القول عندها أوسع تصرفا ، وأنه قد يقع على الجزء الواحد ، وعلى الجملة ، وعلى ما هو اعتقاد ورأي ، لا لفظ وجَرْس)[٢٧] .

الكتابة الصوتية :

يقول دي سوسور : (اللغة والكتابة نظامان متميزان من الاشارات ، والهدف الوحيد الذي يسوغ وجود الكتابة هو التعبير عن اللغة ... ان الشكل المنطوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالصورة المكتوبة ، حتى ان الصورة الأخيرة تطغى على الصورة الاولى (الكلمة المنطوقة) فيهتم الناس بالصورة المكتوبة للاشارة الصوتية اكثر من اهتمامهم بالاشارة نفسها) [٢٨] .

وتمضي اللغة في تطورها اما الكتـــابة (فتجنح نحــو الاستقرار) (٢٩) ، وهكذا ورثت الامم اليوم خطوطا ترمز الى أصوات ، ومجموعة رموز تشير الى الفاظ ، ورأى علماء اللغة تباينا بين صوت الخط المفرد في الف باء اللغة وصوت الخط نفسه في تركيب اللفظة في عدد لا يمكن اهماله من الالفاظ في لغات البشر(٣٠) ، مما أدى الى ظهور (الكتابة الصوتية) التي تجاوزت في رموزها الف باء الكتابة التقليدية في أية لغة ، حيث جعلت هذه الكتابة لكل صوت لغوي رمزاً خاصا به ٠

وللكتابة الصوتية اليوم نظامان :

الأول : نظام الكتابة الصوتية الدولية وتوضع رموزهــا بين قوسين معقوفتين [   ] ويرى أصحابه أنه يمكــن أن يعبر به عن أصوات اية لغة في العالم ، ويطلق عليه الابجدية الصوتية (الفونيتكية) ٠

الثاني : نظام الكتابة الصوتية الخاصة بلغة معينــة ، وتوضع رموزها بين خطين مائلين /   / ، ويطلق عليهــا الابجدية الصويتية (الفونيمية)(٣١) ٠

وقد نبه دي سوسور على أن الكتابة الصوتية ينبغــي أن لا تستخدم خارج علم اللغة فهي خاصة بالمشتغلين بالدرس الصوتي في علم اللغة ولا يجوز ان تكون بديلا مــن الكتابــة التقليدية لان كثرة الاشارات على الرموز تؤدي الى الاربــاك والغموض لدى القارىء وينقلب التيسير الى تعسير : (هــل هناك ما يسوغ استخدام حروف هجاء صوتية عوضا عن نظام

مستخدم للكتابة ؟ لا يسعني هنا ان أفعل اكثر من التنويه بهذه المسألة المهمة ، اذ اعتقد أن حروف الهجاء الصوتية ينبغي أن يقتصر استخدامها على اللغويين وفي بادىء الامر كيف يمكن أن نجعل الانكليز والفرنسيين والالمان ، وغيرهم يتبنون نظاما موحداً ، ثم ان نظاما موحدا من حروف الهجاء يمكن استخدامه في جميع اللغات قد يغدو مثقلا بالاشارات التي ترسم فوق الحروف وتحدد نطق هذه الحروف ، فضلا عن المظهر الثقيل للصفحة المكتوبة بالحروف الصوتية . اذن فمحاولة بلوغ الدقة لابد أن تربك القارىء ، لانها تضفي الغموض على الشيء الذي أريد بهذه الحروف التعبير عنه ، وتكون العيوب أكثر من الفوائد . فالدقة الصوتية اذن غير مرغوب فيها خارج العلم)[٣٢] . وقد وضع دي سوسور رموزاً صوتية خاصة به لم يكتب لها منافسة نظام الكتابة الدولية .

الذي يعنينا هنا من مسألة الكتابة الصوتية أنها ترمز الى الأصوات بحسب لفظها لا بحسب كتابتها ، ولذلك فهي كتابة قائمة على النطق . وقد سبق علماء العربية الغربيين في هذا التفكير الصوتي عندما كتب الخليل بن أحمد الفراهيدي الأصوات على وفق نطقها ، لا على وفق كتابتها ، وذلك حين ابتكر علم العروض ، وهو أمر مشهور متداول الى يومنا هذا ، وقد قال علماؤنا : (خطان لا يقاسان ، خط المصحف لأنه سنّة ، وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقط)[٣٣] .

فالكتابة العروضية كتابة قائمة على الصوت ، يكتب فيها ما يلفظ (سوى الحركات) وان لم تكن له صورة في الخط كالتنوين مثلا ، وما لايلفظ لا يكتب وان كانت له صورة في الخط كهمزة الوصل مثلا ، فقول الشاعر :

اذ لقوم قالو من فتى خلت آنْنَني
عنيت ، فلم أكسل ولم اتبلد

يكتب صدره في العروض هكذا :

اذ لقوم قالو من فتن خلت أنْنَنِي

فذا الذي في العروض كما قلنا مشهور متداول وهو من الكتابة الصوتية ، الا أن الذي وجدناه عند ابن جني من الكتابة الصوتية كان في غير علم العروض على أنه كان فيه متابعا لسيبويه ، مما يشير الى قدم التنبه على اختلاف صورة الكتابة عن الصوت المنطوق عند علماء العربية مما يجعلهم متقدمين في هذا الحقل على الاوربيين بما يزيد على ألف عام ، قال : (فأثّر المتوقع لأنه كأنه حاضر ، وعلى ذلك قالوا : امرأة شمباء ، وقالوا العمبر ، ونساء شُمْب ، فأبدلوا النون ميما لما يتوقع من مجيء الباء بعدها ، وعليه أيضا أبدلوا الأول للآخر في الادغام نحو : مَرّأيت ؟ . واذهفّي ذلك،واصْحَمّطرا)(٣٤) . فقد كتب شمباء وهو يريد شنباء بالنون لأن لفظها بالميم ، وكذلك كتب العمبر بالميم وهي بالنون في الخط : العنبر ، وكذلك نساء شنب تكتب بالنون وتلفظ بالميم فكتبها بالميم .

ومثل ذلك قوله في الادغام في من رأيت : مرّأيت ،

حيث كتبها بناء على النطق ، وفي اذهب في ذلك ، حيث كتبها اذهفّي ذلك ، بحسب نطقها ، ومثل ذلك قوله في اصْحَبْ مطرا حين كتبها اصحمّطرا ، بناء على النطق أيضا ، وذلك كله على خلاف الرسم المألوف في الكتابة الاعتيادية ، وانما هو رسم خاص بالكتابة الصوتية .

والكتابة الصوتية في غير العروض لم يبتكرها ابن جني كما تقدم وانما هو متابع فيها لسيبويه كما قدمنا ، قال سيبويه : (يقلبون النون ميما في قولهم : العنبر. ومن بدا لك ·· واما الادغام في الميم فنحو قولهم : اصحمطرا ، تريد اصحب مطراً مدغم ··· والباء قد تدغم في الفاء ··· وذلك قولك : اذهب في ذلك : فقلبت الباء فاء · وقد تدغم هذه اللام والنون مع الراء ·· وذلك هرّأيت ومرّأيت) (٣٥) .

وانت ترى في عبارة سيبويه ورسمها ذلك لسبق في الكتابة الصوتية ، ولكنك ترى فيها أيضا عدم استعمال هذه الكتابة في كل موضع حيث كتبت العنبر ، ومن بدا لك ، واذهب في ، بالرسم المألوف في غير الكتابة الصوتية ، مما يشير الى أن اصطناع هذه الكتابة لمثل هذه الكلمات كان في بدايته ، ولذا يصح نسبة اختراعه الى سيبويه · اما ابن جني فقد أخذ الفكرة من سيبويه وجعلها عامة ، حيث رسم الكلمات كلها بالكتابة الصوتية ·

وهكذا نجد علماء العربية يتنبهون الى مخالفة الرسم للصوت في غير العروض ، فيغيرون الرسم بما يوافق الصوت

لغرض الايضاح في العلم ، وهذا هو الذي صنعته الجمعية الصوتية الدولية ، ولكن في القرن التاسع عشر ، وهو أيضا الذي تحدث عنه دي سوسور في أوائل القرن العشرين ·

اعتباطية الاشارة اللغوية :

الاشارة اللغوية بالمفهوم السوسوري هي محصلة الربط بين الفكرة والصورة الصوتية ، أو ان شئت بين المدلول (الفكرة) والدال (الصورة الصوتية) ، أو ان شئت بين المعنى (المدلول) واللفظ (الدال) (٣٦) ، وهي ذات طبيعة اعتباطية ، بمعنى أن ارتباط الدال بالمدلول لم يكن ارتباطا قائما على علاقات طبيعية فرضت ذلك الارتباط ، بحيث لا يمكن الا أن يكون هذا الدال لهذا المدلول ، قال : (ان الاشارة اللغوية اعتباطية ففكرة(الاخت)لاترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب لأصوات (S - O - R) التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية ، فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر) (٣٧) ·

والكلام على اعتباطية الاشارة اللغوية لم يكن غائباً عن فكر ابن جني ومن تقدمه من علماء العربية ، الا ان ما اطلع عليه من اسرار هذه اللغة جعله يتحدث عن علاقة طبيعية أو علاقة مقصودة بين اللفظ والمعنى (الدال والمدلول) ·

اما ذكره لاعتباطية الاشارة اللغوية فقد ورد في كلامه على نشأة اللغة حيث قال : (فكأنهم جاءوا الى واحد من بني آدم فأومأوا اليه ، وقالوا : انسان ، انسان ، انسان ، فأي

وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق. وان أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين. رأس ، قدم ، او نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هـــذا عرف معنيها ، وهلم جرا فيما سوى هذا من الاسماء والافعـال والحروف .

ثم لك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها فتقول : الذي اسمه انسان فليجعل مكانه : مَر"د ، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه سَر° ، وعلى هذا بقية الكلام) (٣٨) .

فلو كانت العلاقة طبيعية ما أمكن جعل مرد مكان انسان وسر مكان رأس ، ولكانت لغة واحدة غيـر قابلـة للتعـدد والتباين ، فلما تعددت اللغات وتباينت فيها الالفاظ الدالة على المدلول الواحد دلّ على اعتباطية العـلاقة بـين الـدال والمدلول او كما قال سوسور اعتباطية الاشارة اللغوية .

قلنا ان ابن جني لم تغب عنه فكرة اعتباطية الاشـارة اللغوية وقد قدمنا ما يظهر ذلك ، الا أن اسرار العربية ومـا انكشف له منها جعله يميل الى وجود علاقة طبيعية بين الدال والمدلول في عدد غير قليل من الفاظ العربية .

ويلاحظ انه لم يجعل الحكم عاما وانما هو ظاهرة فـي العربية ، وقف هذا العالم عندها . قال : (فان كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الافعال التـي عبر بها عنها ، الا تراهم قالوا : قضِم في اليابس ، وخضِم في الرطب ، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت

الاقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف)[39] .

وهذه المضاهاة لم تغب عن دي سوسور ولكنه رآها من الندرة بحيث لا تستحق أن يحفل بها : (ولكن الكلمات التي توحي بمعناها ليست عناصر حيوية (عضوية) في النظام اللغوي . ثم ان عددها أقل بكثير مما يعتقد .. أما الكلمات التي هي أمثلة حقيقية للعلاقة بين الصوت والمعنى (مثل glug - glug ' tuik - tick ، وغيرها) فهي قليله العدد فضلا عن أن اختيارها يكون عادة بصورة اعتباطية ، لأنها محاولات تقريبية تعتمد أيضا على العرف في محاكاة بعض الأصوات (مثال ذلك bow - bow في الانكليزية ، يقابل ذلك oua - oua في الفرنسية «نباح الكلب») [40] .

وهذا الذي أورده اذا كان ينطبق في جملته على غير العربية فان ابن جني أورد من الالفاظ العربية ما يشكل ظاهرة واسعة الابعاد ، ينبغي أن يقف عندها الدارس المنصف ، والا فانه اذ تجاوزها ولم يحفل بها يكون قد جانب وجه الحق ، وحاد عن جادة الصواب ، وابتعد عن الروح العلمي في دراسة اللغة : (فأما مقابلة الالفاظ بما يشاكل أصواتها من الاحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم . وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الاحداث المعبر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره) [41] .

وابن جني في هذا الباب وغيره مما انكشفت له فيه أسرار من حكمة العربية ودقتها ، يضرب صفحا عن فكرة الاعتباطية في الاشارة اللغوية التي ذكرناها آنفا ، فهذا التناسب بين الحروف ومعانيها ينفي فكرة الاعتباطية والمصادفة : (نعم ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر ، والحكمة أعلى وأصنع) (٤٢) ، فهي اذن حكمة عالية أدت الى هذه الظاهر في العربية : فان قلت : فهلا أجزت أيضا أن يكون ما اوردته في هذا الموضع شيئا اتفق ، وأمرا وقع في صورة المقصود من غير أن يعتقد . وما الفرق ؟ قيل : في هذا حكم بابطال ما دلت الدلالة عليه من حكمة العرب ، التي تشهد بها العقول ، وتتناصر اليها أغراض ذوي التحصيل) (٤٣) .

وقد أوردنا في الفصل الثاني من كلام ابن جني على المناسبة بين أصوات العربية ومعانيها ما يغني عن الاعادة . وهذا الذي تقدم ذكره هناك عن ابن جني لو كان في اللغات التي اطلع عليها سوسور مثله ، أو لو كان اطلع على ما في العربية منه ، ما انكر مضارعة الأصوات لمعانيها في عدد غير قليل من من الفاظ اللغة .

على أننا يمكن أن نجمع بين القول باعتباطية الاشارة اللغوية والقول بالمناسبة بين الصوت والمعنى بأن نقول : ان اللفظ الأول وضع اعتباطا ولما أريد التعبير عن معنى مقارب للاول ولكنه يختلف عنه نوع اختلاف اختارت العرب له الصوت المناسب في مقابلة الصوت الاول ، وايضاح ذلك أن يقال

مثلا ان العرب وضعت أولا الفعل نضح بالحاء مثلا وعبرت به عن معنى خروج بقطرات ، أو رش الماء بقطرات ، فلما أرادوا التعبير عن الغزارة والكثرة جعلوا مكان الحاء الخاء فقالوا نضخ ، وقل مثل ذلك عن نحو : الحور والحول ، والحور والعور ، فاحدى هذه الالفاظ الثلاث هي الأصل ، واللفظتان الأخريان مأخوذتان منها بتغيير صوت فيها ، ولا يبعد أن يكون العور هو الاصل وأخذ منه الحول ، والحاء اخت العين ولكنها أقل نصاعة منها ، واللام أخت الراء وهي أضعف صوتا من الراء ، وهكذا اختير الضعيفان في مقابل القويين لأن الحول في العين علة أضعف من العور • ولما يكون في من ظهور بياض العينين وسوادهما بصورة اكثر من الطبيعية ، لاقتراب السوادين ، وظهور البياضين من جهتي السوادين حتى يبدو للناظر وكأنه سواد كثير وبياض كثير ، نقلت هذه الصورة اذا وجدت في العين الواحدة من العيب الى الحسن ، فاذا ظهر في العين الطبيعية شدة سواد في شدة بياض سمي الحور ، فهي لفظة للحسن بين عيبين ، ولذلك جعلت بين اللفظتين العور والحول ، فهذا كما ترى على سنة ابن جني في النظر الى الالفاظ ، وان لم يكن منه •

الثبوت والتغيير في الاشارة اللغوية :

من الافكار التي عرضها دي سوسور في كتابه فكرة الثبوت والتغيير في الاشارة اللغوية ، فالاشارة اللغوية موروثة ومن ثم فهي ثابتة لا يمكن تغييرها ، وهذا هو الأصل الأول في

صفتها ، وهي من جهة ثانية معرضة للتغيير بتغير الزمن ، وهذا يعني أنه تغيير تدريجي غير محسوس ، اذ ليس للفرد أو المجتمع أن يقوم بتغيير شيء من الدوال المستعملة في لغته ، ولكن دخول عنصر الزمن كفيل بايقاع ذلك التغيير .

وقد وجدنا ابن جني يعرض لما عرض له دي سوسور في مسألة ثبات الاشارة اللغوية ، وكذلك تغييرها ، الا أن ابن جني يضيف بعداً ثانيا غير الزمن ، وهو البعد المكاني ، فالتغيّر الذي يصيب الاشارة في الحضر يمكن ان يلحظ بوضوح بخلاف البادية ، على أن البعد الزماني مؤثر في المكانين ، وذلك باحداث الفاظ جديدة بما يوافق عروض الحاجة اليها . وقد رأينا أن نقدم كلام سوسور أولا ليوازن القارىء بينه وبين كلام ابن جني .

يقول دي سوسور تحت عنوان : صفة الثبوت والتغيير في الاشارة : (ان الدال ، مع كونه يبدو وكأنه قد اختير بحرية كاملة ليمثل الفكرة التي يعبر عنها ، ثابت ، وليس حرا بالنسبة للمجتمع اللغوي الذي يستخدمه ... ، مهما رجعنا الى الوراء وتوغلنا في القدم ومهما كانت الحقبة التي نختارها ، فان اللغة تظهر لنا على أنها تراث من الحقبة السابقة للحقبة التي نحن بصددها ... فلم يعرف أي مجتمع من المجتمعات اللغة سوى أنها نتاج موروث من الاجيال السابقة ينبغي قبوله .. ، يسود العامل التاريخي الذي ينقل اللغة من جيل الى آخر فيمنع حدوث أي تغيير فجائي واسع ، ان الناس على العموم قانعون باللغة التي يرثونها (٤٤) .

ويقول ابن جني : (وكيف تصرفت الحـــال وعلى أي الأمرين كان ابتداؤها ـ يعني اللغة ـ فانه لابد أن يكون وقع في أول الامر بعضها ثم احتيج فيما بعد الى الزيادة عليه لحضور الداعي اليه فزيد فيها شيئا فشيئا ، الا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه ، وتأليفه ، واعرابه المبين عن معانيه ، لايخالف الثاني الأول · ولا الثالث الثاني ، كذلك متصلا متتابعا · وليس أحد من العرب الفصحاء الا يقول انه يحكي كلام أبيـه وسلفه ، يتوارثونه آخر" عن أول ، وتابع عن متبَّع)[٤٥] ·

أما التغيير الذي تتعرض له الاشارة اللغوية ، فيقول عنه دي سوسور : (ان الزمن الذي يضمن استمرارية اللغة ، لــه تأثير آخر مناقض على ما يبدو للتأثير الأول ، فهو يدفع الى التغيير السريع أو البطيء للاشارة اللغوية ، اذن يمكننا الحديث عن الثبوت ، والتغيير ، في الاشارة ·

ان هاتين الحقيقتين تعتمدان ـ في جوهرهما ـ الواحدة على الاخرى ، مع انهما مستقلتان ، فالاشارة تتعرض للتغيير لانها تملك القدرة على الاستمرارية وابقاء كيانها · والــذي يسود جميع أنواع التغيير هو بقاء المادة الأصلية ، فاهمـــال الماضي انما هو شيء نسبي ، وهذا ما يجعل مبـــدأ التغيير يعتمد على مبدأ الاستمرارية ·

اعتباطية الاشارات اللغوية تنطوي على حرية اقامة أي نوع من العلاقة بين المادة الصوتية والافكار · وينجم عن ذلك أن العنصرين (الصوت والفكرة) اللذين يجتمعان في الاشارة يساعد كل منهما على ديمومة حياته الخاصة الى درجة لا نجدها

في أي نظام آخر ، فتتغير اللغة او تتطور تحت تأثير جميع القوى التي يمكن أن تؤثر في الأصوات او المعاني ، فالتطور أمر لا مناص منه ، ولا توجد لغة واحدة في العالم تقاومه ، فما ان تمضي حقبة من الزمن حتى تدون بعض التغييرات الواضحة) (٤٦) .

وهكذا نجد عنصر الزمن فضلا عن المجتمع اللغوي هو الذي يؤدي الى دخول التغيير في الاشارة اللغوية عند دي سوسور .

ويقول ابن جني : (وليس أحد من العرب الفصحاء الا يقول : انه يحكي كلام أبيه وسلفه ، يتوارثونه آخر عن أول وتابع عن متبَع ، وليس كذلك أهل الحضر لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب الى اللغة العربية الفصيحة ، غير أن كلام أهل الحضر مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم ، وتأليفهم ، الا انهم أخلوا بأشياء من اعراب الكلام الفصيح .

وهذا رأي أبي الحسن وهو الصواب . وذهب الى أن اختلاف لغات العرب انما أتاها من قبل . أن أول ما وضع منها وضع على خلاف .. ويجوز أيضا أن يكون الموضوع الأول ضرباً واحدا ، ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الاول الى قياس ثان جار في الصحة مجرى الأول)(٤٧) .

القدرة اللغوية :

أشار دي سوسور الى رأي (وتني) في ان الانسان

يستخدم جهاز النطق على سبيل المصادفة ، أي ان الجهاز نفسه غير مصمم في الأصل لغرض الكلام ، واكتفى بالقول : (مما لا شك فيه أن (وتني) متطرف في رأيه) (٤٨) ٠

ويبدو أن تشومسكي قد انطلق من مقولة سوسور هذه ، فتوسع فيها ، ورسّخ في نظريته التوليدية فكرة القدرة اللغوية القائمة على أن جهاز اللغة كله ، وليس جهاز النطق وحده ، متكيف ليكون الاستعداد الفطري للمتكلم ـ المستمع المثالي ، اذ لا يمكن أن نزعم أن لطفل خلال سنتين يستطيع أن يكوّن نظام لغته ، ونغفل ما عاناه جهاز اللغة خلال عشرات الالوف من السنين كي يواكب متطلبات اللغة ٠

القدرة اللغوية عند تشومسكي شيء فينا قبل أن نولد ، ونحن نحاول اكتشافها من خلال استماعنا وتكلمنا ٠ وقد دفعه هذا المفهوم الى التذكير بالجانب العقلاني الذي ورد في فلسفة (هربرت) و (ديكارت) : (فالطريقة العقلانية تقضي بأن هناك أفكارا فطرية ومباديء من مختلف الانواع وراء نطاق التراكيب الآلية السطحية للمعالجة ، ان هذه الافكار والمبادىء تقرر شكل المعرفة المكتسبة بما يمكن أن يكون طريقة محدودة وعالية التنظيم ، والشرط اللازم لتنشيط التراكيب الآلية الفطرية هو وجود حوافز مناسبة ، وهكذا فالافكار الفطرية بالنسبة لديكارت هي تلك التي تنشأ عن ملكة التفكير وليس من الاشياء الخارجية ٠

لا يصل الى عقولنا شيء من الاشياء الخارجية عن طريق

اعضاء الحس اكثر من الحركات المادية ، وحتى هذه الحركات والاشكال التي تنشأ منها ، لا نتصورها بالهيئة التي تتخذها في أعضاء الحس ، وهكذا فيلزم أن فكرة الحركات والاشكال هي ذاتها فطرية فينا . ومن باب أولى أن تكون أفكار الالم واللون والصوت وما شابهها فطرية كذلك ، وان عقلنا في حالة حركات مادية معينة يتصور هذه الافكار لأنه لا تشابه بينهـــا وبـين الحركات المادية .

وقبل هذا يؤكد لورد هربرت ان الافكار والمباديء الفطرية تظل مستترة ما دامت الاشياء التي تقابلها غير موجودة ، وقد تزول ولا تعطي أي دليل على وجودها ، فهي يجب ان لا تعتبر نتاجا للتجربة ، بل مباديء بدونها لا تكون تجربة أبداً)(٤٩) .

ولم يغب عن تشومسكي أن الرأي السائد قبـل عرض نظريته هو الرأي التجريبي ، ومن أجل ذلك أورد هذا الرأي ثم أظهر تردد الدراسة بين وجهتي النظر واخيراً صرح باختيار الجانب العقلاني : (تتعارض وجهة النظر هذه بحدة مع المفهوم التجريبي ... ولن نكون غير دقيقين ان وصفنا طريقة علـم اللغة الحديث التصنيفي ، والتي تختص بمعالجة المادة اللغوية بأنها وجهة نظر تجريبية تتعارض مع البديل الذي هو عقلاني بالاساس والذي طرح ضمن النظريات الحديثـة للقـــواعـد التحويلية .. ان طريقة المعالجة العقلانية التـي تمثلت فـي الاعمال الحديثة في نظرية القواعد التحويلية قد ثبت خصبها وانسجامها مع ما نعرفه عن اللغة .

اما التأملات التجريبية الاخرى فلا تسهم بشيء يوحي

ولو بشكل ضعيف بطريق للتغلب على القصور الذاتي للمناهج التي طرحت وفصلت ، وعلى الاخص فلم تزودنا مثل هذه التأملات بأي طريق لتعليل أو حتى للتعبير عن الحقيقة الاساسية حول الاستخدام الاعتيادي للغة ، ألا وهو مقدرة المتكلم على أن ينتج ويفهم فوراً جملا جديدة لا تشابه تلك التي سمعها مسبقا بأي شكل يمكن تحديده فيزياويا أو وفقا لأي فكرة عن أطر واصناف العناصر ، او ترتبط بتلك التي سمعت مسبقا بالاشراط ، ولا يمكن الحصول عليها من تلك الجمل بأي شكل من أشكال « التعميم » المعروف في علم النفس او الفلسفة ٠

ان هذا لا يبقي الا أملا ضئيلا في زعم أن الكثير من البنية اللغوية يمكن تعلمه من قبل كائن ليس له علم مسبق بالطبيعة العامة لهذه البنية ٠٠ وهذا موقف يعطينا زيادة على ذلك استنتاج ان الانسان يبدو فريداً بين الحيوان في الشكل الذي يكتسب به المعرفة ، وموقف كهذا غير محتمل بصورة خاصة فيما يتعلق باللغة ، التي هي جانب من جوانب عالم الطفل يؤلف خلقا انسانيا ٠ وعلى هذا فلنا أن نتوقع منها (أي اللغة) أن تعكس بصورة طبيعية القدرة الانسانية الذاتية في نظامها الداخلي وبمتابعة هذا البحث يمكن لنا ان نأمل باعطاء جوهر حقيقي للاعتقاد التقليدي القاضي بأن مبادىء القواعد تؤلف جزءاً مهما ومميزاً من فلسفة العقل الأنساني) (٥٠) ٠

وما عبر عنه تشومسكي بمقدرة المتكلم ، أو القدرة عبر عنه ابن جني بالطبع ، أو الطبيعة (٥١) ، وهو شيء فطري في ابن اللغة ، وكما تحدث تشومسكي عن مقدرة المتكلم على أن ينتج ويفهم فوراً جملا جديدة لا تشابه تلك التي سمعها مسبقا ، تحدث ابن جني عن تصرف العربي وارتجاله ما لم يسبقه به أحد اليه : (فان قلت : فمن اين لهذا الاعرابي مع جفائه وغلظ طبعه معرفة التصريف حتى بنى من ظاهر لفظ ملك فاعلا فقال : مالك ٠

قيل : هبه لا يعرف التصريف اتراه لا يحسن بطبعه وقوة نفسه ولطف حسه هذا القدر ، هذا ما لا يجب أن يعتقده عارف بهم أو آلف لمذاهبهم ، لأنه وان لم يعلم حقيقة تصريفه بالصنعة فان يجده بالقوة ٠ وانهم قد يلاحظون بالمنّة والطباع ، ما لا نلاحظه نحن عن طول المباحثة والسماع)(٥٢) ٠

وفي موضع آخر قال : (فان الاعرابي اذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به ، فقد حكي عن رؤبة وأبيه انهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها) (٥٣) ٠

الكفاية اللغوية :

ويراد بها معرفة المتكلم ـ السامع بلغته ، وقابليته للحكم باصولية التركيب او عدمها (فالجملتان ١ و ٢) لا معنى لهما ولكن أي متكلم باللغة الانكليزية يعرف أن الجملة الأولى فقط هي قواعدية :

Colorless green ideas sleep furiously (١)

(الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام بشدة)

Furiously sleep ideas green colorless (٢)

(بشدة تنام الخضراء التي لا لون لها الافكار)

ان دراسة الدلالة ، والاحصائية ، مع أهميتها وفائدتها ، يبدو أنها ليست ذات صلة مباشرة بمسألة تحديد أو تمييز مجموعة القولات القواعدية • لذا اعتقد انه لا مناص من القول: ان نظام القواعد مستقل عن المعنى ، وان النماذج التي تعتمد على الاحتمال لا تعطينا نظرة ثاقبة في بعض المسائل الاساسية للبنية النحوية)(٥٤) •

والى حكم ابن اللغة بقواعدية التركيب او اصوليته ، وعدم اصوليته ، أشار ابن جني وهو ينقل لنا محاورة جرت بينه وبين الشجري ذلك الاعرابي الفصيح : (وسألت الشجري يوما فقلت : يا ابا عبدالله ، كيف تقول : ضربت أخاك ؟ قال : كذاك ، فقلت : أتقول ضربت أخوك ؟ فقال : لا أقول أخوك أبداً • قلت : فكيف تقول : ضربني أخوك ؟ فقال : كذاك • فقلت : ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبداً؟ فقال : أيش ذا ، اختلفت جهتا الكلام •

فهل هذا في معناه الا كقولنا نحن صار المفعول فاعلا ، وان لم يكن بهذا اللفظ البتة فانه هو لا محالة) (٥٥) • وقرر في موضع آخر (أن الاعرابي الفصيح اذا عدل به عن لغته الفصيحة الى اخر سقيمة عافها ولم يأبه بها)(٥٦) •

فكلام الشجري صريح في الحكم باصولية الجملة • وعدم

اصوليتها وان كان لا يعرف احكام الاعراب التي تكلم عليها علماء العربية من رفع ونصب ، ولكن العبارة عنده بهذا التركيب تلفظ بصورة ، وبتركيب آخر تلفظ بصورة اخرى ، أما لماذا لا يعكس فلأنه بكفايته اللغوية يعلم أن هذا مخالف للغة قومه (وسألته يوما فقلت : كيف تجمع دكانا فقال : دكاكين قلت : فسرحانا ، قال سراحين • قلت فقرطانا ، قال : قراطين • قلت : فعثمان ؟ قال : عثمانون • فقلت : هلا قلت أيضا عثامين ؟ قال : أيش عثامين ؟ أرأيت انسانا يتكلم بما ليس من لغته ، والله لا أقولها أبداً)(٥٧) •

الجملة النواة :

ذهب تشومسكي في نظريته التوليدية التي عرضها عام ١٩٥٧ في كتابه (البنى النحوية) الى وجود جملة نواة في البنية العميقة ، تولد منها جمل عديدة بعد دخول التحويلات عليها • وفي : (جوانب من نظرية النحو) عام ١٩٦٤ كرر كلامه على التحويلات ، مما يؤكد استمراره على القول بالجملة النواة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم على جملة ما بأنها متحولة الا بعد اقرار جملة أصل لها قبل التحول ، فتقول مثلا ان الجملة السطحية الواحدة التي تعود الى جملتين في البنية العميقة تعود في حقيقة الأمر الى جملتين نواتين ، فجملة : زيارة العمات مملة ، مثلا (٥٨) ، تعود الى الجملة النواة (١) زيارة العمات لنا مملة ، أو (٢) زيارتنا للعمات مملة • أو ان شئت (١) أن تزور العمات و (٢) ان تزار العمات •

وقريب من أمثال هذه الجمل التي تندرج تحت ما اسماه

أرسطو (أغاليط التركيب) (٥٩) ، التي لا يظهر حقيقتها الا السياق أو واقع الحال أو غيرهما من القرائن ، أن يتفق اللفظ على تأويلين مختلفين يفسرهما نظم الكلام ، كما تقول في (يدعون) ونحوه ، فهذا يصح أن يكون الواو فيه لام الكلمة ، والنون للنسوة فاعل ، والتقدير مثلا : النساء يدعون ، كما يصح أن تكون الواو واو الجمع فاعلا ، والنون علامة رفع ، والتقدير : الرجال يدعون ٠

ومثل ذلك : لم يردَّ ، ولن يردَّ ، فالفعل مفتوح الآخر وهو بلفظ واحد ، ولكن الفتحة في الاول للتخفيف تخلصا من التقاء الساكنين ، وفي الثاني علامة نصب ٠

الذي يعنينا هنا من مثل هذه الامور ما قرره تشومسكي من وجود جملة نواة تقاس بها الجمل المتحولة ويحكم في ضوء ذلك على تحول الجملة الجديدة ٠ وهذا المعنى تناوله علماء العربية ومنهم ابن جني ، وذلك في كلامهم على الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، والزيادة والتحريف ، واختلال نظم الكلام ٠٠ الخ ، فلو لم يكن في اذهانهم جملة نواة هي الأصل ما صح القول بالحذف ، والتقديم ، وغير ذلك ٠

يقول تشومسكي : (وجدنا في ٧-٦ مثالا لجملة (أي I found the boy studying in the library)

لا يمكن توضيح الابهام فيها دون اللجوء الى المعايير التحويلية ٠٠ ويبين لنا تحليل تحويلي آخر ان في كلتا الحالتين هذه الجملة هي تحويل لخيطي الانتهاء الذين يسبقان جملتي النواة البسيطتين الآتيتين :

I found the boy (١)

(وجدت الولد)

The boy studying in the library (٢)

(يقرأ الولد في المكتبة)

اذن هذه حالة مهمة لجملة ، الابهام فيها ناجم عن تطبيق تحويلين على خيوط النواة نفسها) (٦٠) .

ويقول : لقد وجدنا أمثلة من الجمل التـي تفهم بأكثر من طريقة واحدة ولها تمثيل مبهم على المستوى التحويلي .. فمن أجل أن نفهم جملة ما من الضروري أن نعرف جمل النواة التي اشتقت منها هذه الجملة ، وبعبارة اخرى أدق علينا أن نعرف خيوط الانتهاء التي تعتمد عليها جمل النواة هـــذه ، وبنية العبارة لكل من هذه المكونات الأولية ، وكذلك التاريخ التحويلي للجملة التي نحن بصددها وتطورها عن جمل النواة هذه . وهكذا تصبح المسألة العامة لتحليل عملية الفهم في أحد معانيها مسألة شرح كيفية فهم جمل النواة ، التي تعتبر العناصر الاساسية للمحتوى ، التي تشتق منها جمـل أكثر تعقيداً مألوفة في الحياة الحقيقيـــة عـــن طريـــق التطـــور التحويلي) (٦١) .

ويكاد الباب الذي عقده ابن جني بعنوان باب في شجاعة العربية يدور في فلكـه مفهوم الجملة النواة والجمل المتحولة عنها ، وقد أورده في الجزء الثاني من الخصائص من ص٣٦٠ الى ص٤٤١ ، ومما ورد فيه : (باب في شجاعة العربية : اعلم ان معظم ذلك انما هو الحذف ، والزيادة ، والتقديم ، والتأخير ،

والحمل على المعنى ، والتحريف • الحذف : قد حذفت العرب الجملة والمفرد ، والحرف . والحركة ، وليس شيء من ذلك الا عن دليل عليه • والا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته •• وقد حذفت الجملة من الخبر نحو قولك : القرطاس والله ، أي أصاب القرطاس • وخيرَ مقدم ، اي قدمت خير مقدم • ، قوله عزوجل «كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ» أي : ذلك او هذا بلاغ ، وهو كثير •• ، وقد حذف المستثنى نحو قولهم : جاءني زيد ليس الا ، وليس غير • أي ليس الا اياه وليس غيره •••

ومن ذلك قول الآخر :

ليبك يزيد ، ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

لأنه لما قال : ليبك يزيد ، فكأنه قال : ليبكه ضارع لخصومة • وعلى هذا تقول : أكل الخبز ، زيد • وركب الفرس ، محمد • فترفع زيداً ومحمداً بفعل ثان يدل عليه الأول) •

فزيد في هذا جزء من جملة حذف أولها والأصل : آكله زيد ، ومحمد جزء من جملة حذف أولها أيضا ، والأصل : ركبه محمد ، فلما دل عليه ما قبله جاز حذفه للعلم به ، فكأن العربي قد أدرك البنية أو الهيكل المعتاد للكلام وحذف اعتماداً على ذلك •

ووجود نظام قار من الجمل النوى في اللغة جعل العربي يركن اليه عند خفاء الاعراب ، أو القرائن الأخرى الدالة على المعنى المراد ، فالاعراب (هو الابانة عن المعاني بالالفاظ الا ترى انك اذا سمعت : اكرم سعيد أباه ، وشكر سعيداً أبوه ،

علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول . ولو كان الكلام شرجاً واحداً لاستبهم احدهما من صاحبه .

فان قلت : فقد تقول : ضرب يحيى بشرى ، فلا تجد هناك اعرابا فاصلا ، وكذلك نحوه ، قيل : اذا اتفق ما هذه سبيله مما يخفى في اللفظ حاله ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الاعراب ، فان كانت هناك دلالة اخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير، نحو : أكل يحيى كمثرى ، لك أن تقدم وأن تؤخر كيف شئت . وكذلك : ضربت هذه هذا ، وكذلك ان وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف)(٦٢) .

فالالتزام بنظام معين للجملة عند خفاء الاعراب دليل على ان الجملة بذلك النظام هي الجملة النواة ، وان ما يدخلها من امكان التقديم والتأخير في الفاظها عند ظهور الاعراب هو التحويل الذي تتولد به جمل جديدة من الجملة النواة .

البنية والمعنى :

حاول بلومفيلد (المتوفى سنة ١٩٤٩م) تصحيح مسار التركيبية الهيكلية التي تقدمته فأقترح التركيبية التوزيعية (٦٣) ، الا ان عمله لم يكن خاليا من النقص(٦٤) ، ولذا جاء تشومسكي بتركيبيته التحويلية ليعالج هذا النقص : (... المنوال التحويلي ، وهو وليد نقصين مباشرين اكثر من غيرهما في التركيبية التوزيعية ، فهي أولا لا تفيد المتكلم عن الاسباب التي تجعل بعض الجمل المتماثلة في

توزع مكوناتها المباشرة ، تعتبر احداهما مقبولة : (أعجب الرجل بالجاحظ » والاخرى غير مقبولة : « اعجب الجبل بالجاحظ » (٦٥) ٠

وفي هذا يقول تشومسكي مظهرأ وجود بنية صحيحة من الناحية الهيكلية وان كانت لا معنى لها ، وبنية أخرى تشاركها في انعدام المعنى ولكنها غير صحيحة من حيث البناء الهيكلي : (فالجملتان (١) و (٢) لا معنى لهما ولكن أي متكلم باللغة الانكليزية يعرف أن الجملة الاولى فقط هي قواعدية ٠

(١) Colorless green ideas sleep foriosly

(٢) (Furiously sleep ideas green colorless

وقد تقدم ذكر النص وشرحه في « الكفاية اللغوية » ٠

والدرس اللغوي العربي لا يتفق مع هذه النظرية في فصل المعنى عن نظام التركيب ، ولكنه يوافقها في أن نظام الجملة قد يكون موافقا لنظام العرب في كلامها أي تكون الجملة صحيحة قواعديا كما تقول النظرية التوليدية ، ولكنها غير صحيحة من حيث المعنى ٠

فقد أشار سيبويه الى هذا المفهوم عندما قال : (هذا باب الاستقامة من الكلام والاحالة : فمنه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب ٠ فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس ، وسآتيك غدا ، واما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول أتيتك

غداً ، وسآتيك أمس ، واما المستقيم الكذب فقولك حملت الجبل ، وشربت ماء البحر ونحوه . واما المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك : قد زيدا رأيت ، وكي زيد يأتيك وأشباه هذا ، واما المحال الكذب فأن تقول سوف اشرب ماء البحر أمس) (٦٦) .

فهذا كله كلام ولكن بعضه مخالف للقواعد في التركيب وبعضه مخالف للمعاني ، فالذي عنده علم بقواعد العربية يعلم ان قوله حملت الجبل ، وشربت ماء البحر ، وسوف اشرب ماء البحر أمس ، صحيحة من حيث التركيب ، ولكنها غير صحيحة من حيث المعنى ، ففي الجملتين الاولى والثانية : فعل + فاعل + مفعول به ، وهو تركيب صحيح ، وفي الثالثة : حرف استقبال + فعل + فاعل مستتر + مفعول به + مضاف اليه + ظرف وهو تركيب صحيح ايضا ، ولكن المعاني خرجت بالجمل الثلاث عن الصحة . واما قوله : قد زيداً رأيت ، وكي زيد يأتيك ، فهما جملتان غير قواعديتين ، لأن حرف التحقيق لا يتبعه اسم في التركيب العربي : قد + اسم (غير ممكن) ، قد + فعل « ماض » (ممكن) ، وكذلك حرف التعليل (كي) لا يتبعه اسم : كي + اسم (غير ممكن) ، كي + فعل « مضارع » (ممكن) .

والى علاقة الصحة القواعدية بالمعنى أشار ابن جني وهو يتكلم على جواز حذف الصفة . اذا دل عليها دليل من الحال أو اللفظ : (ألا تراك لو قلت : وردنا البصرة فاجتزنا بالابلة على رجل ، أو رأينا بستانا ، وسكت لم تفد بذلك شيئاً لأن هذا

ونحوه مما لايعرى منه ذلك المكان ، وانما المتوقع أن تصف من ذكرت أو ما ذكرت ، فان لم تفعل كلفت علم ما لم تدلل عليه ، وهذا لغو من الحديث وجور في التكليف) (٦٧) ·

فأنت ترى أن الجملة صحيحة من حيث التركيب الا ان الاسم الذي في آخرها (رجل ، بستانا) كان نكرة ، وبخلوه من الوصف لا تكون قد أفدت السامع شيئا كان يجهله ، اذ لا يستنكر ان يكون بالابلة رجل ، أو بستان ، ولو جئت بالصفة لكان قولك مفيداً كأن تقول : علي رجل كريم ، او بخيل ورأينا بستانا صغيراً ، أو كبيرا ، أو قليل التمر ، أو كثير التمر ، وعندئذ يكون التركيب صحيحا ، والمعنى صحيحا مفيدا ·

السمات المعجمية :

تعتمد النظرية التوليدية اعطاء سمات الايجاب والسلب للالفاظ الدالة ليتم اختيار اللفظ المناسب في موضعه من التركيب فتكون الجملة اصولية ، فمثلا (كتاب) يتصف بالسمات الموجبة والسالبة الآتية (٦٨) : + اسم ، − ضمير، − حي ، − انساني ، + محسوس ، + عام ، + معدود ، + مفرد ، − معرفة ، + مذكر ، + غائب ، + معرب ، + منفصل ، − رفع · فاذا قلنا مثلا : ضحك كتاب ، كانت الجملة غير اصولية لأن ضحك تتميز بأنها + فعل ، + حي ، + انساني ·· ، وكتاب كما تقدم − حي − انساني ، ومن ثم كانت الجملة غير اصولية ·

وقد تكلم تشومسكي عن السمات المعجمية مفصلا تحت

عنوان : بنية المعجم(٦٩) ٠ قال في أوله : (لقد وصف المعجم قبل هذا ببساطة بأنه مجموعة من المواد المعجمية، تتألف الواحدة منها من مصفوفة سمات مميزة (ز) ورمز مركب (ج) ، وهذا الثاني هو مجموعة سمات من انواع عديدة ، سمات نحوية ودلالية تخصص أي العمليات الصرفية والتحويلية ستعمل على السلاسل التي تحوي المفردات صاحبة السمات وكذلك سمات تستثنى المفردات من بعض القوانين الفنولوجية وهكذا) ٠

وفي الباب الذي عقده ابن جني تحت عنوان : باب في فرق بين الحقيقة والمجاز ، قال : (الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ٠ والمجاز ما كان بضد ذلك ٠٠ فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفرس : هو بحر ، ولو عري الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع عليه بحر ، لما فيه من التعجرف في المقال من غير ايضاح ولابيان ٠ ألا ترى أن لو قال : رأيت بحراً وهو يريد الفرس لم يعلم بذلك غرضه ، فلم يجز قوله ، لأنه الباس والغاز على الناس ٠

فان قلت : فقد أحال سيبويه قولنا : أشرب ماء البحر ، وهذا منه خطر للمجاز الذي أنت مدع شياعه وانتشاره ٠

قيل انما أحال ذلك على أن المتكلم يريد به الحقيقة ، وهذا مستقيم ، اذ الانسان الواحد لا يشرب جميع ماء البحر ٠ فأما ان اراد به بعضه ، ثم أطلق هناك اللفظ يريد به جميعه فلا محالة من جوازه ٠

فسيبويه اذأ انما وضع هذه اللفظة في هذا الموضع على أصل وضعها في اللغة من العموم ، واجتنب المستعمل فيه من الخصوص) (٧٠) ٠

ولسنا هنا في معرض نقد مفهوم السمات المعجمية في النظرية التوليدية ، وما تحمله هذه السمات من ثقـــل فـــي الأجراءات ، وما تؤدي اليه من اهدار دور المجاز في اللغـة ٠ ولكننا نقول ان الحديث عن عدم اصولية الجملة لاختـــلاف السمات المعجمية فيها ، شيء كان علماء العربية قد أدركوه ، ونبهوا على أن الجملة لا تكون أصولية معه اذا حمل المعنى على الحقيقة ، اما اذا حمل على المجاز فهي اصولية ٠

البنية السطحية والعميقة :

من الاصول التي تقوم عليها نظرية النحو التوليدي القول بوجود جملة عميقة تؤول الى جملة سطحية بعـــد دخـــول التحويلات وعنصر الصوت عليها(٧١) ، وقد تولد اللغة جملة سطحية واحدة ولكنها تعود الى جملتين عميقتين كما تقدم من كلامنا على جملة : زيارة العمات مملة ، فهذه تعود الى جملتين عميقتين احداهما ان تزور العمات المتكلم ، والاخرى أن يزور المتكلم العمات وبعبارة أخرى أتعد العبارة من اضافة المصدر (زيارة) الى فاعله ، أم من اضافته الى مفعوله . فهمـــا اذن تقديران محتملان ٠

ومثل ذلك جملة : (نقد تشومسكي نقد مبرر ، يقـابل

البنية السطحية الواحدة لهذه الجملة بنيتان عميقتان ، تعبر كل منهما عن معنى مغاير ، هما نقد أحدهم لتشومسكي نقد مبرر . ونقد تشومسكي لأحدهم نقد مبرر) [٧٢] . وهي كالجملة السابقة اذا قدرت من اضافة المصدر الى فاعله كان المعنى الثاني واذا قدرت من أضافته الى مفعوله كان المعنى الأول ، فهما أذن تقديران محتملان .

وفي احتمال ظاهر اللفظ تقديران مختلفان يقول ابن جني في الباب الذي عقده بعنوان : (باب في اللفظ يرد محتملا لأمرين ... اعلم أن المذهب في هذا ونحوه أن يعتقد الأقوى منهما مذهبا ، ولا يمتنع مع ذلك أن يكون الآخر مراداً وقولا ، من ذلك قوله :

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

فالقول أن يكون (ناهيا) اسم الفاعل من نهيت ، كساع من سعيت وسار من سريت . وقد يجوز مع هذا أن يكون (ناهيا) هنا مصدراً ، كالفالج والباطل والعائر [بثر يكون في جفن العين الاسفل] والباغز [النشاط في الابل] ونحو ذلك مما جاء فيه المصدر على (فاعل) ، حتى كأنه قال : كفى الشيب والاسلام للمرء نهيا وردعا ..

ومن ذلك قوله :

ومن الرجال أسنة مذروبة ومزندون شهودهم كالغائب

يجوز ان يكون (شهودهم) جمع شاهد ، وأراد كالغياب ، فوضع الواحد موضع الجمع ، على قوله :

على رؤوس كرؤوس الطائر

يريد : الطير ، ويجوز أن يكون (شهودهم) مصدراً ، فيكون الغائب هنا مصدراً أيضا ، كأنه قال : شهودهم كالغيبة، أو المغيب ، ويجوز أيضا أن يكون على حذف المضاف ، أي شهودهم كغيبة الغائب) (٧٣) .

فأنت ترى ان كلامه هنا دائر على نصّ ظاهر بلفظ واحد ، يحتمل تأويلين أو اكثر او كما هو في النحو التوليدي جملة سطحية واحدة تعود الى جملتين عميقتين أو اكثر .

وبعد فلو شئنا تقصي كل جوانب اللقاء بين فكر ابن جني اللغوي والافكار القائمة في علم اللغة الحديث ، لما وقف بنا الكلام حيث وقفنا ولمضينا نتناول مثلا كلامه على اشتراك العلوم اللغوية مما يندرج تحت مباحث علم اللغة العام ، واللغة نظام قارّ ، واختلاف معجمات الأفراد وتدارك ذلك بالقياس ، وتطور الدلالة ، والسلسلة الكلامية المنظور فيها الى الاصوات المنسوقة لا الى المعاني الى غير ذلك .

والذي نريد أن ننبه عليه هنا أننا ينبغي أن نتوجه بقراءة جديدة الى ما كتبه علماء العربية الأوائل ، وذلك في ضوء ما يعرضه الدرس اللغوي الحديث ، وان نحاول التوفيق بين ما أدى اليه علمهم وجهدهم في خدمة لغة القرآن ، وما عندنا اليوم ، ونخرج من كل ذلك بمنهج يكفل مواصلة الحفاظ على هذه اللغة الكريمة ، واستمرار تطورها ، على وفق وثبات أصولها .

هوامش الفصل الثالث

(١) مفاتيح الألسنية ص ٢٦ ٠

(٢) نفسه ٠

(٣) البنيوية في اللسانيات ص٨ ٠

(٤) Chomsky and psychology, p. 23-24.

(٥) انظر دلالة الالفاظ من ص٢٠ الى ص٣٧ ، وانظر أيضا دور الكلمة في اللغة ص ٨٨ ٠

(٦) نفسه ٠

(٧) الخصائص ٢/٢٨ ٠

(٨) نفسه ١/٤١ ٠

(٩) المزهر ١/٢٨ ـ ٣٥ ٠

(١٠) الخصائص ١/٤٦ ٠

(١١) اللغة ص٣١ ٠

(١٢) الخصائص ١/٣٣ ٠

(١٣) علم اللغة العام ص٢٧ ٠

(١٤) علم اللغة العام ص٢٧ ٠

(١٥) نفسه ص٢٩ ٠

(١٦) نفسه ص٣٠ ٠

(١٧) نفسه ص٣١ ٠

(١٨) نفسه ص٣٢ ٠

(١٩) الخصائص ١/٣٣ ٠

(٢٠) علم اللغة ص ٢٩ ـ ٣١ ٠

(٢١) الخصائص ٢/ ٣٢ ، ٣٣ ، وانظر ايضاً ٢/ ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢٢) التمهيد ص١١٧ .

(٢٣) الخصائص ١/ ٣٢ .

(٢٤) في العربية اليوم أربع ترجمات لكتاب سوسيور بعناوين مختلفة وهي : علم اللغة العام ، ترجمة د . يوئيل يوسف عزيز ، وهي الطبعة العراقية ، وعليها كانت احالاتنا في هذا الكتاب لسعة انتشارها عندنا .

محاضرات في الالسنية العامة ، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر ، وقد جاءت ترجمة المصطلحات فيه : اللسان واللغة والكلام ، (ص٢٢ ، ٢٣) كما هي في الترجمة العراقية .

دروس في الالسنية العامة ، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة ، وفيه : الكلام ، واللغة ، واللفظ (ص٢٩ ، ٣٤) .

فصول في علم اللغة العام ، نقله الى العربية دكتور أحمد نعيم الكراعين ، وفيه الكلام ، واللغة ، والكلام ! (ص٣١ ، ٣٦) .

ووردت ترجمة فقرات من الكتاب او فصول منه فيما كتبه عدد من المعتنين بالكتابة في علم اللغة ، ومنها ترجمة المصطلحات الثلاثة فمن ذلك ماورد في : الالسنية — قراءات تمهيدية — لميشال زكريا ، حيث ترجمها الملكة اللغوية ، اللغة ، الكلام ، (ص ٧١) ، وترجمها محمد الحناش في : البنيوية

في اللسانيات ، بالكلام ، واللغة ، والانجاز ، (ص٢٣) وترجمها عبدالصبور شاهين في : في علم اللغة العام ، باللغة ، واللسان ، والكلام ، (ص٢٩) ، وترجمها تمام حسان في : مناهج البحث في اللغة ، باللغة بالمعنى العام ، واللغة المعينة ، والكلام ، (ص٣٩) ، ووافقه في هذه الترجمة محمود السعران في : علم اللغة ، (ص٣٠١ ، ٣٠٢) .

(٢٥) علم اللغة العام ص٢٧ .
(٢٦) نفسه ص٣١ .
(٢٧) الخصائص ١/١٧ ـ ٣٢ .
(٢٨) علم اللغة العام ص٤٢ .
(٢٩) نفسه ص٤٦ .
(٣٠) الكتابة الصوتية ص٧ .
(٣١) نفسه ص١٥ .
(٣٢) علم اللغة العام ص٥٢ .
(٣٣) كشف الظنون ١/٧١٤ .
(٣٤) الخصائص ٢/٣٣ .
(٣٥) الكتاب ٢/٤١٢ .
(٣٦) انظر علم اللغة العام ص٨٤ ـ ٨٦ .
(٣٧) نفسه ص ٨٧ .
(٣٨) الخصائص ١/٤٤ .
(٣٩) نفسه ١/٦٥ .
(٤٠) علم اللغة العام ص٨٨ .

(٤١) الخصائص ٢/١٥٧ ٠
(٤٢) نفسه ٢/١٦٢ ٠
(٤٣) نفسه ٢/١٦٤ ٠
(٤٤) علم اللغة العام ص٩٠ ـ ٩١ ٠
(٤٥) الخصائص ٢/٢٨ ـ ٢٩ ٠
(٤٦) علم اللغة العام ص٩٣ ـ ٩٤ ٠
(٤٧) الخصائص ٢/٢٩ ٠
(٤٨) علم اللغة العام ص٢٨ ٠
(٤٩) جوانب من نظرية النحو ص ٦٨ ٠
(٥٠) نفسه ص٧٠ ـ ٧٧ ٠
(٥١) في : نظرية النحو العربي ص٥٢ ـ ٥٣ سماها السليقة ٠
(٥٢) الخصائص ٣/٢٧٥ ـ ٢٧٦ ٠
(٥٣) نفسه ٢/٢٥ وانظر ١/٣٦٩ ٠
(٥٤) البنى النحوية ص ١٩ـ٢٢ ٠
(٥٥) الخصائص ١/٢٥٠ ٠
(٥٦) نفسه ٢/٢٦ ٠
(٥٧) نفسه ١/٢٤٢ ٠
(٥٨) انظر : نظرية تشومسكي اللغوية ـ آفاق عربية عدد ٦ سنة ١٩٨٢ ص٧٣ ـ ٧٥ ٠
(٥٩) انظر : مدخل الى علم المنطق ص٢٢٩ ٠
(٦٠) البنى النحوية ص ١١٥ ، ١١٦ ٠
(٦١) نفسه ص١٢٣ ٠
(٦٢) الخصائص ١/٣٥ وانظر ١/٣٢٩ ـ ٣٣٠ ٠

(٦٣) مفاتيح الالسنية ص١٠١ ، ١٠٤ .

(٦٤) انظر : علم اللغة ، للسعران ص٣٤٧ .

(٦٥) مفاتيح الألسنية ص١٠٨ .

(٦٦) الكتاب ١/٨ .

(٦٧) الخصائص ٢/٣٧١ .

(٦٨) انظر : قواعد تحويلية للغة العربية ص ٩٠ .

(٦٩) جوانب من نظرية النحو ص٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٦٤ .

(٧٠) الخصائص ٢/٤٤٢ ، ٤٥٥ ـ ٤٥٦ .

(٧١) جوانب من نظرية النحو ص١٧٧ .

(٧٢) تشومسكي والثورة اللغوية ـ الفكر العربي ، العددان ٨ و ٩ سنة ١٩٧٩ ص ١٣٣ .

(٧٣) الخصائص ٢/٤٨٨ ـ ٤٩٠ .

الخاتمـــة

كانت رحلتنا مع ابن جني عالم العربية ، فـي فصوله الثلاثة جامعة لفوائد جمة ، حيث اطلعنا في الفصل الاول على الجوانب العلمية المضيئة في القرن الرابع الهجري في بـلاد الاسلام عامة ، وفي الموصل وبغداد خاصة ، حيث كانت ولادة ابن جني ونشأته العلمية في الموصل ، وحيث كان تصـدره للتدريس ووفاته في بغداد ، ورأينا كيف كان ذلك القـرن حافلا بالعلماء من معاصريه ، وشيوخه ، وتلامذته من بعده •

ورأينا العلاقة الوثيقة التي انعقدت بينه وبين علمين من أعلام الشعر العربي في عصره ، وهمـا المتنبي والشريـف الرضي ، حتى اذا توفي المتنبي رثاه ابن جني ، فاذا توفي ابن جني رثاه الشريف !

واطلعنا في هذا الفصل أيضا على جوانب من ثقافة ابن جني ، وبعض السمات فيما كتب ، كاعجابه بما يكتـب ، وقسوته في الرد على من يخالفهم أحيانا • وتبيّنا من مصادر دراسته أخذه من الشيوخ ، وطرق الأخذ عنده ، ومشافهـة الاعراب فـي زمانه واخـذه القليل عنهم . وظهـر لنـا فـي الكلام على شواهد عنايته بالحديث النبوي والاستشهاد به ،

على خلاف ما كان عليه بعض علماء العربية ممن لم يستشهد بالحديث .

وفي الفصل الثاني وجدنا منزلة العربية العظيمة في نفس ابن جني ، وشدة غيرته عليها ، حتى انه لم يرتض الموازنة بينها وبين غيرها من اللغات ، ونسب ذلك أيضا الى شيوخه ممن كان من أصل غير عربي . بل اننا وجدناه يربط بين معرفة العربية ، والاعتقاد ، ويرى أن كثيرين ممن انحرفت عقيدتهم انما كان ذلك بسبب جهلهم بالعربية واسرارها وحكمتها .

وقد رأينا حبه للعربية يفتح له آفاقا واسعة من الدرس اللغوي القائم على بيان خصائص هذه اللغة ، ومن ذلك نظريته في الاشتقاق الاكبر القائمة على الصلة بين الصوت والمعنى العام ، وكذلك حديثه عن الصيغ والتضعيف وصلة ذلك بالمعاني الدالة عليها . وحديثه عن علاقة الصوت المفرد بالمعنى ، وأن العربي يغير الصوت ليناسب المعنى ، كما قال نضح للماء القليل ونضخ للكثير ، وهز للضعيف وأز للقوي ، وهلم جرا .

ورأينا لهجات العربية عنده كلها حجة ولكن بضوابط معينة ، وان ما يسمع من العربي الفصيح مخالفاً للغة الجمهور يقبل منه ولا يقاس عليه ، اما اذا سمع منه ما لم يسمع من غيره ، وكان معروفا بفصاحته فانه يؤخذ به في اللغة ، ويستعمل ، لأن العربي اذا قويت فصاحته تصرف وارتجل

ورأيناه يذكر أصلا مهما في القياس على كلام العرب ، وذلك أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم وإن لم يسمع منهم ، مما يمكن أن يجد فيه العاملون في حقل التعريب والترجمة معينا لا ينضب يستقون منه وهم يقومون بعملهم خدمة لهذه اللغة الكريمة .

وفي الفصل الثالث وجدنا ابن جني يزاحم بمنكبيه منظّري الدراسات اللسانية الحديثة في جملة من المفاهيم التي جاءوا بها ، وحسبوا ، أو حسب المطلعون على نظرياتهم أنهم لم يسبقوا اليها ، ووجدنا اصول ذلك فيما كتب عالمنا قبل اكثر من الف عام ، فمن ذلك ما عقدناه من موازنة بين فكره وفكر دي سوسور في جملة من المفاهيم منها : مفهوم اللغة ، والصورة الصوتية ، والكتابة الصوتية ، والاشارة اللغوية ، والحديث عن اعتباطيتها التي لم تغب عن فكر ابن جني ، اذ ذكر ذلك ، ولكنه مع العربية يأبى أن تكون الاشارة اعتباطية في كثير من الفاظها ، ودلل على ذلك بشواهد من اللغة التي أحبها .

ومن ذلك ما عقدناه ايضا من موازنة بين فكره وفكر تشومسكي في نظريته التوليدية ، حيث وقفنا عند جملة من مفاهيم النحو التحويلي التوليدي ، ورأينا ما عنده في ذلك ، فمن ذلك مفهوم القدرة اللغوية ، والكفاية اللغوية ، والجملة النواة . وفي علاقة المعنى بالتركيب ذكرنا تقدم علمائنا في ذلك وأفدنا من كلام سيبويه فيه وذكرنا ان ابن جني متابع له في ذلك . ومنه

أيضا حديث التوليدية عن السمات المعجمية ، وعن الجملة العميقة والجملة السطحية .

وقد كان ابن جني في ذلك كله رائداً ، مما يثير في ابناء العربية اليوم الحماس ليستخرجوا ما عند اسلافهم من الدرس اللغوي المواكب لدراسات هذا القرن ، ويضيفوا اليه ما يعزز تطلعهم لمستقبل لغوي متين ، مبني على أسسه القديمة القويمة .

المصادر

ـــ ابن جني النحوي ـ د · فاضل السامرائي ، ط بغداد ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ·

ـــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ للمقدسي ، طبعة بالاوفست عن ط٢ ، ليدن ١٩٠٩م ·

ـــ الاشباه والنظائر ـ للسيوطي ، ط٢ ، الدكن ١٣٥٩هـ ·

ـــ الاشتقاق ـ لابن دريد ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط١، ١٩٥٨م ·

ـــ اصالة الحضارة العربية ـ د · ناجي معروف · ط٢ ، بغداد ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ·

ـــ الاصول في النحو ـ لابن السراج ـ تحقيق د · عبد الحسين الفتلي ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ·

ـــ الأعلام ـ خيرالدين الزركلي ، ط٤ ، بيروت ١٩٧٩م ·

ـــ أعيان الشيعة ـ للسيد محسن الأمين ، ط١ ، بيروت ١٩٥٦م ·

ـــ الاغراب في جدول الاعراب ـ لابن الانباري ، تحقيق سعيد الافغاني ط دمشق ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م ·

ـــ الاقتراح في علم اصول النحو ـ للسيوطي ، تحقيق د · أحمد محمد قاسم ، ط القاهرة ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ·

— الألسنية ـ قراءات تمهيدية ـ د . ميشال زكريا . ط ١ . بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
— الألسنية ـ مبادئها واعلامها ـ د . ميشال زكريا ، ط ١ بيروت ، ١٩٨٠م .
— انباه الرواة ـ للقفطي ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ط مصر ، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م
— أوزان الفعل ومعانيها ـ هاشم طه شلاش ط النجف . ١٩٧١م .
— بحوث في تاريخ السنة المشرفة ـ اكرم العمري ، ط ٢ ، بغداد ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
— بغية الوعاة ـ للسيوطي ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .
— البنى النحوية ـ تأليف نوم تشومسكي ، ترجمة د . يوئيل يوسف عزيز ، بغداد ، ١٩٨٧م .
— البنيوية في اللسانيات ـ الحلقة الاولى ـ د . محمد الحناش ، ط ١ ، الدار البيضاء ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م .
— تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعي ، ط ٢ ، ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م .
— تاريخ علوم العربية ـ طه الراوي ، ط ١ ، ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م .
— تاريخ اللغات السامية ـ أ . ولفنسن ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م .

ـــ تشومسكي والثورة اللغوية ـ جون سيرل ، مجلة الفكر العربي ، طرابلس العددان ٨ و ٩ الســـنة الاولى ، ١٩٧٩ م ٠
ـــ تفسير ارجوزة أبي نواس ـ لابن جني ، تحقيق محمـد بهجة الأثري ، ط دمشق ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ٠
ـــ التمام في تفسير أشعار هذيل ـ لابن جني ، تحقيـق د ٠ احمد ناجي القيسي و د ٠ أحمد مطلـوب و د ٠ خديجة الحديثي ، ط بغداد ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م ٠
ـــ التمهيد في علم التجويد ـ لابن الجزري ، تحقيق د ٠ غانم قدوري حمـد ، ط١ ، بيـــروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ٠
ـــ التنبيه على شرح مشكلات الحماسة لابن جني ، تحقيق عبدالمحسن خلوصي ، (على الألة الكاتبة) مكتبـــة الدراسات العليا بكلية الآداب ٠
ـــ جوانب من نظرية النحو ـ تاليف تشومسكي ، ترجمة مرتضى جواد باقر ، جامعة البصرة ، ١٩٨٥م ٠
ـــ الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ـ د ٠ محمد ضاري حمـادي ، ط١ ، بغداد ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ٠
ـــ الخصائص ـ لابن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ، ط دار الكتب المصرية ، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م ٠
ـــ دراسات في فقه اللغـــة ـ د ٠ صبحي الصالح ط٣ ، بيروت ، ١٩٦٨م ٠

— الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ـ د . حسام سعيد النعيمي ، ط بغداد ، ١٩٨٠م .
— الدرس النحوي في بغداد ـ د . مهدي المخزومي ، ط بغداد ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
— دروس في الالسنية العامة ـ دي سوسور ، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط تونس ، ١٩٨٥م .
— دلالة الالفاظ ـ د . ابراهيم أنيس ، ط٢ ، ١٩٦٣م .
— دور الكلمة في اللغة ـ ستيفن اولمان . تعريب . كمال محمد بشر ، ط٣ ، القاهرة ١٩٧٣م .
— ديوان الشريف الرضي ، ط بيروت ١٣٨٠هـ .
— الرواية والاستشهاد باللغة ـ د . محمد عيد ، ١٩٧٢م .
— سر صناعة الاعراب ـ لابن جني ، جـ١ تحقيق مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وابراهيم مصطفى وعبدالله أمين ، ط١ ، مصر ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م .
— سر صناعة الاعراب ـ لابن جني ، جـ٢ تحقيق أحمد رشيد سعيد محمود (على الآلة الكاتبة) ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م . وقد أشرنا اليها بـ (الأزهر) .
— شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ لابن العماد . ط بيروت .
— شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ـ لأبي أحمد العسكري . تحقيق عبدالعزيز أحمد ، ط١ ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

— طرق تنمية الالفاظ في اللغة ـ د · ابراهيم انيس ، ط القاهرة ١٩٦٧م ·
— ظاهرة الشذوذ في النحو العربي ـ د · فتحي عبدالفتاح الدجني ، ط١ ، ١٩٧٤م ·
— العربية ـ يوهان فك ، ترجمة د · عبدالحليم النجار ، ط القاهرة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ·
— علم اللغة العام ـ دي سوسور ، ترجمة د · يوئيل يوسف عزيز ، ط١ ، بغداد ١٩٨٥م ·
— علم اللغة ـ د · محمود السعران ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٢م ·
— عمدة الصرف ـ كمال ابراهيم ، ط٢ ، بغداد ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م ·
— العين ـ للخليل بن أحمد الفراهيدي ، جـ١ تحقيق د · عبدالله درويش ، ط العاني ببغداد ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ·
— غاية النهاية في طبقات القراء ـ لابن الجزري ـ نشر برجستراسير ، ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ·
— الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي ـ لابن جني ، تحقيق د · محسن غياض ، ط بغداد ١٩٧٣م ·
— الفسر ، ديوان المتنبي بشرح ابن جني ، تحقيق د · صفاء خلوصي ، ط١ ، بغداد ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ·
— فصول في علم "اللغة العام ـ دي سوسير ، ترجمة د · أحمد نعيم الكراعين ، ط الاسكندرية ١٩٨٥ م ·
— الفهرست ـ لابن النديم ، ط مطبعة الاستقامة بالقاهرة ·

— فهرس شواهد سيبويه ــ أحمد راتب النفاخ ، ط بيروت ١٩٧٠م ٠
— في الأدب الجاهلي ــ د ٠ طه حسين ، القاهرة ١٩٦٢م٠
— في علم اللغة العام ــ د ٠ عبدالصبور شاهين ، ط٣ ، بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ٠
— قواعد تحويلية للغة العربية ــ د ٠ محمد علي الخولي ، ط١ ، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ٠
— كتاب سيبويه ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق الاولى . ١٣١٦هـ ٠
— الكتابة الصوتية ــ د ٠ حسام سعيد النعيمي ــ مجلة المورد ، العدد الاول ، المجلد ١٦ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م٠
— كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ــ حاجي خليفة ، ط٣ بالاوفسيت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ٠
— اللغة ــ ج فندريس ، تعريب عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، ط مصر ١٩٥٠م ٠
— المبهج في شرح اسماء شعراء الحماسة ــ لابن جني ، ط الترقي بدمشق ١٣٤٨هـ ٠
— محاضرات في الألسنية العامة ــ دي سوسير ، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر ، دمشق ١٩٨٤م ٠
— المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ــ لابن جني ، تحقيق علي النجدي ناصف و د ٠ عبدالحليم النجار ود ٠ عبدالفتاح شلبي ، ط القاهرة ١٣٨٦هـ ٠
— المزهر في علوم اللغة ــ للسيوطي ، تحقيق محمد أحمد

جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد ابي الفضل ابراهيم ، ط عيسى الحلبي بمصر .

— معجم الأدباء — ياقوت الحموي ، تصحيح مرجليوث ، ط٢ ، مصر ١٩٢٨م .

— المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي — ونسنك ، ط ليدن ١٩٣٦م .

— مفاتيح الألسنية — تأليف جورج مونن — تعريب الطيب لبكوش ، ط تونس ١٩٨١م .

— مقدمة الخصائص — محمد علي النجار ، في أول كتاب الخصائص المذكور .

— الممتع في التصريف — ابن عصفور ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ، ط١ ، حلب ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

— مناهج البحث في اللغة — د . تمام حسان ، ط٢ ، المغرب ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

— المنصف ، شرح تصريف المازني — لابن جني . تحقيق ابراهيم مصطفى وعبدالله أمين ، ط القاهرة ١٩٥٤م .

— مهذب الاغاني — ابن واصل الحموي ، ط القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .

— موسيقى الشعر — د . ابراهيم أنيس ط٤ ، القاهرة ١٩٧٢ م .

— موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف — د . خديجة الحديثي ، ط بغداد ، ١٩٨١م .

— نزهة الالباء في طبقات الادباء ـ لابن الانبـــاري ، ط جمعية احياء مآثر العلماء العرب .
— نظرات في اللغة والنحو ـ طه الراوي ط١ ، ١٩٦٢م .
— نظرية تشومسكي اللغوية ـ جي ألن ، ترجمة مجيــد الماشطة ، مجلة آفاق عربية ، السنة السابعة ، العدد ٦ ، ١٩٨٢م .
— نظرية النحو العربي ـ د . نهاد الموسى ، الاردن ، ط١، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
— هدية العارفين ـ اسماعيل البغدادي ، ط٣ ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

المحتـوى

الفصل الثاني ـ ابن جني والعربية

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : رياض عبد الكريم

السعر ١,٧٥٠ دينا



بغداد — ١٩٩٠

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة